نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم (دراسة تفسيرية موضوعية)

إعداد
الدكتورة خضرة إبراهيم علي حامد غبان
khadra Ibrahim Ali hamed ggabban
الأستاذ المساعد بكلية التربية والآداب
بجامعة تبوك بالمملكة العربية السعودية
k.ggabban@ut.edu.sa

تأسست عام 2011م
مجلة
العلوم الإسلامية

ملخص البحث

يأتي هذا البحث: **(نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية)**. ليبين -بقدر الطاقة البشرية- ما تضمنه نداء مريم في القرآن الكريم من دقائق التعبير القرآني، ولطائفه وهداياته.

وقد ورد نداؤها في ثمانية مواضع، فقد ناداها نبي الله زكريا عليه السلام، وناداها جبريل عليه السلام -على الراجح من الأقوال-، ونادت نفسها، وناداها ولدها عيسى عليه السلام، وناداها قومها.

وقد تضمنت تلكم النداءات في كل موضع كثيرا من الدقائق واللطائف والهدايات، التي تدل على فضل مريم رضي الله عنها، وتعظيمها، وتبجيلها، كما أبانت عن المنزلة السامية والمكانة العالية التي بوأها الله تعالى إياها؛ فهي العابدة الصالحة التقية، التي اختصها الله تعالى بمزيد من الفضل والإكرام، فاصطفاها على نساء عصرها في الصلاح والتقى، وطهَّرها من كل ما ينقص الأخلاق أو الدين، واصطفاها على نساء الدنيا إلى يوم القيامة؛ لإنجابها نبي الله عيسى -عليه السلام- من غير أب، إلى آخر ما تضمنته تلك النداءات من الدقائق واللطائف.

الكلمات المفتاحية: نداء - مريم - القرآن الكريم - تفسيرية - موضوعية).

Abstract:

This research (The Call of Maryam (Mary) in the Glorious Qur'an, a thematic exegetical study) comes to illustrate - as far as human capacity is concerned- the subtleties of Quranic expression, its charmness and guidance entailed in Maryam's calls in the Glorious Qur'an.

Her call was mentioned in eight places. Allah's prophet Zakariyyah, peace be upon him, called her, Angel Gibreel (Gabriel), peace be upon him, called her, she called herself, her son Isaa (Jesus), peace be upon him, called her, and her people called her.

Those calls in every place included many subtleties, charmness and guidance, which indicate the merit of Maryam, may Allah be pleased with her, and her glorification and veneration. She is the righteous and pious worshiper, whom Almighty Allah singled out with more grace and honor, so He chose her over the women of her time in righteousness and piety, and purified her from everything that degrades morals or religion, and chose her over the women of this world until the day of resurrection; Because she gave birth to Allah's Apostle, Isaa - peace be upon him - without a father, -to the last content of those calls in subtleties and charmness-.

Keywords: call-Maryam-The Glorious Qur'an -thematic- exegetical.

المقدمة

* * *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛ فإن القرآن الكريم منبع الهداية الأعظم، وملاذ الدين الأكبر، نور البصائر والأبصار، وموطن الحكم والأسرار، لا تنفد آياته، ولا تخلق على كثرة الرد بيِّناته، ملأ الوجود سناه، وغمر القلوب نوره وهداه، لا يشبع من تدبره العلماء، ولا يمل من ترداده الأتقياء، أعجزَ في نظمه البلغاء، وأَصَمَّ في بيانه الفصحاء، تظافرت في الحسن ألفاظه وعباراته، وتظاهرت في الجمال أساليبه وهداياته.

وإن من أجل أساليبه - وكلها جليلة-: أسلوب النداء، ذلكم الأسلوب الذي شرَّفه الله تعالى وعظَّمه؛ حيث خاطب به أنبياءه عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ ﴾ [الصافات: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ ﴾ [مريم: ٥٢]. وحيث جعله الله تعالى طريقا ساق به كثيرا من تشريعاته وهداياته، ووعظه وإرشاده، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه.

لقد تضمن هذا الأسلوب القرآني العظيم -في كل مقام- فيضا من المعاني السامية، والحكم العالية، والمعاني والدلالات.

ولا ريب، فقد عايشت بعضا من هداياته تلك أثناء تدبري له في قصة الصديقة مريم رضي الله

عنها؛ إذ وجدته مهيمنا على جو قصتها، حاملا من المعاني العظيمة ما يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبيان؛ فعقدت العزم ووجهت الهمة نحو دراسته دراسة تفسيرية تستلهم ما يتيسر من مضامينه ودقائقه؛ قياما بالأمر الإلهي: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وأسميت البحث: (نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية). وهي رحلة تدبرية أردت من خلالها -بقدر طاقتي- إبراز دقائق التعبير القرآني، وأسراره ولطائفه وهداياته في تلكم النداءات؛ فقد ناداها نبي الله زكريا عليه السلام، ونادتها الملائكة، وناداها ولدها عيسى عليه السلام، وناداها قومها، ونادت نفسها، في سياقات مختلفة، تحمل كثيرا من المعاني والهدايات.

- **أسباب اختيار الموضوع:**

١. الرغبة في نيل الشرف بخدمة كتاب الله تعالى.

٢. حاجة المكتبة القرآنية لمزيد من الدراسات التي تكشف عن معاني أساليب كتاب الله تعالى وهداياته.

٣. عدم وجود دراسة تفسيرية أفردت هذا الموضوع تحديدا.

٤. أن هذا النداء قد تضمن كثيرا من الدقائق والهدايات في كل موضع.

- **أهداف البحث:**

أولا: جمع الآيات القرآنية التي تناولت نداء مريم عليها السلام، ودراستها دراسة تفسيرية تبرز معانيها وتبين ما تيسر من دقائقها وهداياتها.

ثانيا: بيان منزلة مريم -عليها السلام- في القرآن الكريم، من خلال دراسة هذه النداءات دراسة تفسيرية موضوعية.

- **حدود البحث:**

يقتصر هذا البحث على دراسة الآيات الكريمة التي تضمنت نداء مريم عليها السلام دراسة تفسيرية موضوعية.

- **منهج البحث وإجراءاته:**

اعتمدت في هذا البحث على ثلاثة من مناهج البحث العلمي:

أولها: المنهج الاستقرائي؛ حيث جمعت الآيات الكريمة التي ورد فيها نداء مريم عليها السلام.

ثانيها: المنهج التحليلي: حيث حللت -قدر الإمكان- ألفاظ وأساليب وسياقات تلك النداءات القرآنية بما يفي بالغرض ويقوم بالمقصود بيانه.

ثالثها: المنهج الاستنباطي: حيث استنبطت ما يسره الله تعالى لي وفتحه علي من معاني تلك النداءات القرآنية ودقائقها ولطائفها وهداياتها.

وسرت في ذلك كله على سَنَن أئمة التفسير وعلوم القرآن - رحمهم الله تعالى -، مهتدية بعلومهم، مستنيرة بأقوالهم، والفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي.

- **وراعيت أثناء ذلك:**

أولا: استنباط عنوان لكل نداء من هذه النداءات؛ مستقى من معانيه ودلالاته، وسياقه، ليكون ممهدا لما حواه من المعاني والهدايات.

ثانيا: البدء ببيان سياق النداء الذي ورد فيه، ثم

الانتقال إلى التفسير والبيان، وما انطوى عليه من الدقائق والهدايات.

ثالثا: الاعتماد على الراجح من الأقوال، دون الخوض في اختلافات المفسرين، وما عساه أن يخرج الموضوع عن غرضه وسياقه.

رابعا: توثيق النقول، والتعليق عليها عند الحاجة لذلك.

خامسا: كتابة الآيات بالرسم العثماني، وعزوها إلى سورها.

سادسا: تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصيلة، والحكم عليها إن احتيج إلى ذلك، وكذا تخريج الآثار.

- **الدراسات السابقة:**

بعد البحث والتحري وجدت بعض الدراسات التي تتصل بالنداء في القرآن الكريم، وبعض الدراسات التي تتصل بحديث القرآن الكريم عن سورة مريم عليها السلام.

لكنها جميعا بعيدة عن موضوع البحث (نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية)

**** فمن الدراسات التي تتصل بالنداء في القرآن الكريم:**

١- رسالة ماجستير بعنوان: (آيات النداء في القرآن الكريم، دراسة موضوعية) للباحث/ محمود لطفي، بكلية أصول الدين، بجامعة الأزهر، ١٤٠٩هـ.

٢- رسالة ماجستير: (أسلوب النداء في القرآن الكريم، دراسة تطبيقية في السور المكية) للباحث/ عبد الرحمن المقري، جامعة مؤتة، ٢٠٠٧م.

٣- كتاب: (النداء في اللغة والقرآن) للدكتور/ أحمد فارس، طبعته دار الفكر بلبنان، عام ١٤٠٩هـ.

**** ومن الدراسات التي تتصل بحديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام:**

١- رسالة ماجستير: (سورة مريم دراسة أسلوبية) للباحث/ معين صالح، بجامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٣م.

٢- بحث: (التفسير الموضوعي لسورة مريم)، للدكتور/ أحمد الشرقاوي، طبعته جامعة الشارقة، بالإمارات، ٢٠٠٧م.

وهو تفسير موضوعي للسورة، ولم يخص فيه نداء مريم لا بالدراسة ولا بالتحليل.

٣- بحث: (قصة مريم عليها السلام، دراسة فنية بلاغية) للدكتورة/ بلقيس محمد إدريس، بكلية الآداب، بجامعة طيبة، ١٤٣٧هـ.

٤- بحث: (الدلالة النفسية في سورة مريم) للباحث/ عقيل عكموش، بمجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، ٢٠٠٧م.

**** تعقيب: ظاهر من عناوين هذه الدراسات التي توصلت إليها أنها غير متخصصة في موضوع هذا البحث تحديدا.**

- **خطة البحث:**

اقتضت طبيعة هذا البحث أن ينقسم إلى مقدمة، وتمهيد، ومطلبين، وخاتمة، وثبت للمصادر، وفهرس للموضوعات.

المقدمة:

وتتضمن الحديث عن أهمية البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، ومنهج البحث فيه، والدراسات السابقة، وخطته.

التمهيد: نبذة عن النداء وأسراره في القرآن الكريم.

المطلب الأول: مكانة الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم، دقائق وهدايات.

تمهيد: مواضع نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم.

النداء الأول: نداء التعجب.

النداء الثاني: نداء التطهير والاصطفاء (الكمال البشري).

النداء الثالث: نداء التأنيس، والتنويه، والإعجاب بحالها.

النداء الرابع: نداء البشارة الكبرى بعيسى عليه السلام، وما خصه الله تعالى به.

النداء الخامس: نداء الحياء والحزن والإشفاق.

النداء السادس: نداء التطمين والتثبيت.

النداء السابع: نداء التعجب والإنكار.

النداء الثامن: نداء التعجب والتحسر والثناء.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

الفهارس: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من يطالعه، وأن يغفر لي تقصيري، فإني اجتهدت قدر طاقتي، وما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالى أن المجتهد مأجور على الحالين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد

نبذة عن النداء وأسراره في القرآن الكريم

أولا: معنى النِّداءُ لغة واصطلاحا:

أما في لغة العرب: فهو الصَّوْتُ، وَقَدْ يُضَمُّ، مِثْلُ الدُّعاءِ والرُّغاءِ، يقال: نَادَاهُ مُنَادَاةً، وَنِدَاءً: صَاحَ بِهِ[1].

وأما في الاصطلاح: «طلَبُ الإجابة لأمْرٍ ما بحرف من حروف النداء يَنُوبُ مَنابَ «أدعو»[2]. أي: طلب المتكلم إقبال المخاطب حسًّا أو معنى.

ثانيا: أدوات النداء:

أدوات النداء ثمان، وهي: (أَ - أَيْ - يَا - آ - آي - أَيَا - هَيَا - وَا).

أمَّا (أَ - أَيْ) فلنِدَاء القريب. وأمّا (أَيَا - هَيَا - آ) فلنداء البعيد. وأمّا (يا) فالراجح أنّها موضوعةٌ لنداء البعيد حقِيقةً أو حكْما. وتُسْتَعمل (وَا) للنّدْبة، وهيَ الَّتي يُنَادَى بها المندوبُ الْمُتَفجَّعُ عليه، وتُسْتَعْمَلُ في النُّدْبة أيضاً (يَا) عند أَمْنِ الالتباسِ بالنداءِ الحقيقي[3].

ثالثا: من أسرار النداء في البيان القرآني:

النداء من أساليب اللغة العربية، الذي تنوعت صوره في القرآن الكريم، وتضمنت كثيرا من المعاني والدقائق. إنه أسلوب موقظ ومنبه ومثير ومحرك وموجه ومرشد، إنه الأسلوب الذي يصير به البعيد قريبا، والقريب بعيدا، والعدو صديقا، والصديق عدوا، وبه يتم التعظيم والتفضيل، والذم والتحقير، وبه يكون الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ويزداد التحسّر، ويقوى التأسّف والتّفجع، وتعلو الاستغاثة، ويشتد التعجب، ويعظم اليأس وانقطاع الرجاء، إلى غير ذلك من الأغراض والصور التي نص عليها البلاغيون في كتبهم وبينها المفسرون في تفاسيرهم، مما انطوى عليها أسلوب النداء.

ومما يدل على عظمة هذا الأسلوب، وعلوه في التصوير والبيان، ودقته وفيضانه بالمعاني: أن الله تعالى خاطب به أنبياءه ورسله، وعباده المؤمنين، والكافرين، والناس جميعا، وابتدأ بعض سور كتابه العزيز به، بل خاطب سماءه وأرضه به، في صور كثيرة يضيق هذا البحث الموجز عن ذكر طرف منها.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة: لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه - أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون؛ فاقتضت الحال

---

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ٢٤٠)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد إبراهيم مصطفى الهاشمي: ص٨٩.

(٢) مختار الصحاح للجوهري (ص: ٣٠٧) وتاج العروس للزبيدي (٤٠/ ٥٨) (ندي).

(٣) البلاغة العربية (١/ ٢٤٠)، وجواهر البلاغة (ص٨٩، ٩٠).

أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[١].

رابعا: من صور بلاغة هذا الأسلوب العظيم في القرآن الكريم[٢]:

من تلك الصور العظيمة ما يأتي:

١- المدح والتعظيم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

٢- التكريم، كما في مناداة الله تعالى المؤمنين بحرف النداء «يا» الذي للبعيد، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣]؛ مع أنّه سبحانه وتعالى أقربُ إليهم من حبْلِ الوريد؛ ولعل السر في ذلك: تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين ورفع شأنهم، فخاطبهم بخطاب البعيد لبيان بُعد منزلتهم عنده سبحانه وتعالى؛ وفوق ذلك فيه مراعاة جلال مقام الربوبيَّةِ العظيم؛ إذ هو سبحانه العليُّ العظيم الأعْلَى.

٣- ويأتي كذلك للذم والتحقير، ومنه نداء الله تعالى الكفار؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [التحريم: ٧]، فنداؤهم بأداة النداء التي للبعيد إنما هو لإبعادهم من ساحة القرب منه تعالى، وذمهم وتقبيحهم.

٤- ويأتي لبيان شدة التحسر والندم، واليأس والتوجع: كما في قول الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٨].

٥- ويأتي لبيان انقطاع الرجاء والأمل في تحقق المراد: كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧]، فهو وارد على لسان الرجل المؤمن من أصحاب القرية التي جاءها المرسَلُونَ الثلاثة، والذي اسْتُشْهِد في سبيل الله، حيث يتمنى وهو يتقلّبُ في نعيم الجنة أن يعلم قومه بما غفر له رَبُّهُ وبما جعله من المكرمين، فنادَى بهذا التمني.

٦- ويأتي لبيان شدة التعجب من أمر صعب المنال بعيد الحدوث في تصور البشر: كما جاء في قول الله تعالى على لسان «سارة» زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ ﴾[هود: ٧٢]. حيث نادت الويلة تعجبا من تلك البشرى التي هزت أركانها، حين بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وهي المرأة العجوز الآيسة من بعدُ، العقيم من قبلُ!!.

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٩٠).

(٢) تراجع أغراض النداء في كتب البلاغة، كالإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: ١/ ٩٠، و الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي: ٣/ ١٦١، ١٦٢، وبغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي: ٢/ ٢٧٤، ١٧٥، والبلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكة (١/ ٢٤٠ وما بعدها)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد إبراهيم مصطفى الهاشمي: (ص٨٩، وما بعدها) وغيرها.

٧- ويأتي لبيان التحبب والتحنن والاستعطاف؛ كما في نداء لقمان لابنه في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ بلقمان: ١٣].

٨- ويأتي لبيان الاختصاص؛ كما في قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧٣]. إذ التقدير: رحمة الله وبركاته عليكم يا أهل البيت.

٩- ويأتي لبيان شدة التحدي والتعجيز؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

١٠- ومن صوره أيضا: ما نراه في قصة موسى مع أخيه هارون عليهما السلام، فإنه لما رجع موسى عليه السلام إلى قومه بعد غيابه في الطور لمناجاة ربه سبحانه، ووجدهم يعبدون العجل، غضب غضبا شديدا، وأسف وحزن حزنا عظيما، وأخذ يلوم أخاه هارون عليه السلام؛ إذ رأى أنه لم يكن حازما مع القوم حين تركوا عبادة الله تعالى وعبدوا عجل السامري، وجعل يعاتبه عتابا شديدا، حتى أخذ بشعر لحيته وشعر رأسه؛ على ما صوره القرآن الكريم.

يقول الله تعالى على لسان هارون لأخيه موسى عليهما السلام: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٠].

ويقول الله تعالى على لسانه في نفس المقام ولكن في موضع آخر: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾[طه: ٩٤].

فقد أدى النداء المعنى المراد بأدق عبارة وأبين أسلوب، حيث جاء في الموضع الأول بحذف أداة النداء؛ إذ كان هارون يستعطفه ويسترضيه، ليسمع منه عذره الذي أبداه؛ فحذف أداة النداء مسارعة في الوصول إلى مطلوبه من أقرب طريق؛ كأن مقام الاستعطاف لا يسعفه أن يطيل بذكر أداة النداء!.

وجاء في الموضع الثاني بإثبات أداة النداء (يا) التي للبعيد، مع أنه كان أمامه يخاطبه، لكنه أنزله منزلة البعيد؛ حيث لم يَرْقُبْ قوله السابق له واعتذاره بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، أي: لم يضعه موضع المراقبة ليعمل بمقتضاه، ويلتمس له العذر، ويقلع عن معاتبته!.

إنه مقام واحد، أدى فيه أسلوب النداء المعنى لكل حالة بأبلغ عبارة وأدق بيان!!

إلى آخر تلكم المعاني التي يؤديها أسلوب النداء، ولا يمكن أن تؤدى على هذا الوجه المحكم بغيره.

- **المطلب الأول: مكانة الصِّدِّيقة مريم -رضي الله عنها- في القرآن الكريم**

تقتضينا منهجية البحث في نداء الصِّدِّيقة مريم -رضي الله عنها- في القرآن الكريم أن نقدم بين يدي ذلك نبذة مختصرة -نظرا لطبيعة البحث- لبيان المنزلة العظيمة التي بوأها القرآن الكريم إياها.

فأقول: لم يُعن القرآن الكريم بحياة امرأة قط مثلما عُني بحياة الصِّدِّيقة مريم رضي الله عنها. وإن حديث القرآن الكريم عنها لهو حديث

الفضل والمنزلة، والشرف والرفعة، والعفة والطهر، والعبادة والزهد.

أولا: هي المرأة الوحيدة التي ورد ذكرها باسمها صراحة في كتاب الله عز وجل، بل تكرر ذكرها فيه أربعة وثلاثين مرة، في ثلاث عشرة سورة[١].

ثانيا: هي المرأة الوحيدة التي سمى الله تعالى في قرآنه العظيم سورة باسمها؛ هي (سورة مريم).

ثالثا: هي المرأة التي خلَّد الله تعالى ذكرها، وسجل مآثرها ومناقبها، في قصة من أروع القصص القرآني الكريم.

رابعا: هي المرأة التي سمى الله تعالى سورة من سور كتابه الكريم باسم آلها؛ هي سورة (آل عمران).

خامسا: هي المرأة التي اصطفى الله تعالى آلها مع من اصطفى من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٥] .... الآيات.

اصطفى الله تعالى هذه الأسرة الكريمة المباركة لتكون المحضن التقي النقي الذي تولد فيه البتول العابدة مريم -رضي الله عنها- وتتربى فيه، وتُعد لدور عظيم لا تقوم به إلا من كمُل دينها وإيمانها ويقينها بربها.

سادسا: هي أول أنثى يتقبلها الله تعالى لتكون خادمة في بيت المقدس؛ فقد توجهت أمها العابدة التقية إلى ربها سبحانه بأعز ما تملك، وهو جنينها الذي تحمله في بطنها، ونذرته خالصا لربها محررا للعبادة والخدمة في بيت المقدس، وكانت تتلهف أن يكون ذكرا، فلما وضعتها أنثى تحسرت، «لأنهم كانوا لا يحررون الإناث لخدمة الكنائس، ولا يجوز ذلك عندهم؛ إذ الأنثى لا تنهض بما ينهض به الذكر في هذا المجال، ولا تصلح لصحبة الرهبان»[٢]، لكنها لم تضجر ولم تقنط ودعت لها ولذريتها، وتضرعت إلى الله تعالى أن يتقبلها؛ فتقبلها الله تعالى بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا؛ لتكون مريم -رضي الله عنها- أول أنثى تُقْبل في نذر للخدمة في بيت المقدس؛ لكنها أضحت أنثى بآلاف من الرجال، وبلَّغها الله تعالى من المنازل العظيمة ما لم تتوقعه أمها، وما لم يخطر ببالها، أو ببال أي إنسان؛ يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

والتعبير بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا ﴾، يدل على سرعة استجابة الله تعالى دعاءها، كما يدل

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص٦٦٥.

(٢) ملخص من المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ٤٢٤، ٤٢٥. بتصرف.

التعبير بـ﴿ رَبُّهَا ﴾ على كمال تشريفه تعالى لمريم -رضي الله عنها- وتكريمها، أي: فتقبلها الذي تولى رعايتها وعنايتها، ولم يكلها إلى أحد من خلقه.

ومعنى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾: فتقبلها ربها محررة لخدمة بيت المقدس قبولا مباركا، وخرق بها عادة قومها، فرضي سبحانه أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور، مع كونها أنثى؛ وفاء بنذر أمها العابدة التقية التي تضرعت إليه سبحانه أن يتقبلها، وتولى سبحانه أمرها، فرباها على عينه سبحانه، وصانها من كل سوء، وأنشأها إنشاء صالحا.

«ومن أمارات القبول الحسن: أنها لم تكن توجد إلا في المحراب؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ﴾، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبّد فيه وهناك يوجد المحراب؛ فذلك عبد عزيز. ومن القبول الحسن والنبات الحسن: أن جعل الله تعالى كافلها والقيّم بأمرها وحفظها نبيا من الأنبياء، وهو زكريا -عليه السّلام- ويقال أيضا: من القبول الحسن أن الله تعالى لم يطرح أمرها كلّه وشغلها على زكريا -عليه السّلام-، ولذلك كان كلما دخل عليها ليتعهدها بطعام وجد عندها رزقا»[(١)].

سابعا: هي التي نالت شرف الرعاية والتربية على يد نبي من أنبياء الله تعالى؛ حيث قدر الله تعالى أن يتكفل بها نبي من أنبيائه، هو سيدنا زكريا -عليه السلام-، فإنه لما دفعتها أمها إلى العُبَّاد في بيت المقدس لتكون خادمة فيه تنفيذا لنذرها اختصموا في كفالتها، أيهم يكفلها، لرغبتهم في الأجر، فأقرع بينهم نبي الله زكريا -عليه السلام-، وكان كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم؛ فغلبهم بالقرعة، وكفلها هو، فنالت هذا الشرف العظيم؛ يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ويقول تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

«وإنما قدَّر الله كون زكريا -عليه السلام- كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا»[(٢)]، «وعُدت كفالته -عليه السلام- لها في فضائلها؛ لأنه من جملة ما يزيد فضلها؛ لأن أبا التربية يكسب خلقه وصلاحه مرباه»[(٣)].

ثامنا: هي التي نالت فضل الله تعالى وإكرامه إياها، بإجراء رزقها من قِبَله سبحانه وتعالى، لا من قِبَل أحد من الناس؛ إذ كان يأتيها رزقها من عند الله تعالى، إكراما لها وتشريفا؛ ولم يجعل لأحد من الناس عليها فضلا؛ يقول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٣٨) بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٠).

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣/ ٢٣٥) بتصرف يسير.

تاسعا: هي المرأة البتول[1] الوحيدة التي حملت جنينا في بطنها بكلمة الله تعالى، دون أن يمسها مخلوق، فحقق الله تعالى فيها المعجزة؛ إذ نفخ فيها من روحه، فخلق فيها نبيه عيسى -عليه السلام- بكلمة منه سبحانه، دون أن يمسها أحد؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]، ويقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

عاشرا: هي التي أكرمها الله تعالى وقرَّ عينها بعنايته سبحانه وتعالى بها، وهي أضعف ما تكون، بعد ولادتها عيسى -عليه السلام-؛ إذ ساق إليها الرزق رطبا جنيا، من حيث لا يتصور البشر، حيث أمرها ربها أن تهز جزع النخلة الصلب، وأنى لها ذلك؟!، لأن الواقع حاكم بأنها لا تستطيع هز غصن فضلا عن جزع نخلة، لكنها الكرامة والعناية الإلهية، واليقين بالله تعالى؛ فامتثلت الأمر؛ فتساقطت عليها رطبا جنيا؛ فأكلت وشربت وقرَّت عينُها بعناية ربها بها؛ يقول الله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥ - ٢٦].

حادي عشر: هي التي طهَّرها الله تعالى واصطفاها على نساء العالمين في زمانها، لعبادتها وصلاحها وتقواها، واصطفاها على نساء العالمين إلى يوم القيامة؛ لولادتها عيسى عليه السلام من غير أب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

قال القاضي ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]: إن جعلنا ﴿الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ عاما فيمن تقدم وتأخر جعلنا الاصطفاء مخصوصا في أمر عيسى -عليه السلام- وأنها اصطفيت لتلد من غير فحل، وإن جعلنا الاصطفاء عاما جعلنا قوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ مخصوصا بعالم ذلك الزمان»[2].

(١) البَتُول والبَتِيل والبَتِيلة مِنَ النخْل: الفَسِيلة المُنْقَطِعةُ عَنْ أُمها المستغنيةُ عَنْهَا. والمُبْتِلةُ: أُمُّها، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ. والبَتُول من النساء: المنقطعة عن الرجال لا أَرَبَ لها فيهم؛ وبها سميت مريم أم المسيح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويقال: البَتُول هي المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا. والتبتل: ترك النكاح والزهد فيه والانقطاع عنه. والبَتُول: كل امرأة تنقبض من الرجال لا شهوة لها ولا حاجة فيهم، ومنه التبتل وهو ترك النكاح. ينظر: لسان العرب لابن مظور (١١/ ٤٣)، مادة (بتل).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ٤٣٣.

أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

ثاني عشر: هي التي شرفها الله تعالى فخاطبتها الملائكة الأطهار؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣]، ويقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

ثالث عشر: هي التي جعلها الله تعالى وابنها -عليه السلام- آية من آياته الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه سبحانه؛ يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

أي: وجعلنا ابن مريم وأمه آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس، فالآية أمر واحد نسب إليهما، أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزات جمة، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها(٢).

قال الزجاج: «ومن آياتها: أنها أول امرأة قُبلت في نذر في المتعبد، ومنها: أن الله أنشأ فيها عيسى - عليه السلام - من كلمة ألقاها إليها، ومنها: أن الله عزَّ وجلَّ غذَّاها برزق من عنده لم يجْرِ على يد عبد من عبيده»(٣).

رابع عشر: هي التي جعلها الله تعالى مثلا أعلى وقدوة حسنة للذين آمنوا، يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١ - ١٢].

خامس عشر: هي المرأة التي رفع الله قدرها وأعلا شأنها وجعلها صديقة؛ ونص على ذلك في قرآنه الكريم؛ يقول الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل عائشة رضي الله عنها: (٥/ ٢٩)، ح(٣٧٦٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها: ٤/ ١٨٨٦، ح(٢٤٣١).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٧).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤٠٤).

و﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾: أي مبالِغة في الصدق، لأن صدِّيق «فِعِّيل» من أبنية المبالغة، وهو في كلام العرب للتكثير، كما يقال سِكِّيت أي: مبالِغ في السكوت[1].

«والمراد بهذا الوصف: بيان صدق حالها مع الله تعالى، وقيل: صدقها في براءتها مما رمتها به اليهود، وقيل: تصديقها بالأنبياء وهو ما صرح به في قوله سبحانه: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢].

واستدل بالآية على عدم نبوتها -رضي الله عنها- ، وذلك أنه تعالى شأنه إنما وصفها بالصديقية في معرض الإشارة إلى بيان أشرف ما لها، كما ذكر الرسالة لعيسى -عليه الصلاة والسلام- في نفس المعرض، فلو كان لها -رضي الله عنها- مرتبة النبوة لذكرها سبحانه دون الصديقية؛ لأنها أعلى منها بلا شك»[2].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري -رحمه الله- الإجماع على ذلك»[3].

إلى آخر ما هنالك من الفضائل العظام للسيدة مريم رضي الله عنها، مما لا يسعه هذا البحث المختصر.

- **المطلب الثاني: نداء الصِّدِّيقة مريم -رضي الله عنها- في القرآن الكريم**

دقائق وهدايات

تمهيد

مواضع نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم

ورد نداء مريم -رضي الله عنها- في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، هي:

١- نداء زكريا عليه السلام إياها:

في قول الله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ١٩٦، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٣٤٣).

(٢) روح المعاني للآلوسي (٣/ ٣٧٣) بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٤٣). ويراجع: المحرر الوجيز لابن عطية: ،٢/ ٢٢٢، والتفسير الكبير للرازي: ٨/ ٢١٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٦/ ٢٨٥، ٢٨٦.

٢، ٣، ٤- نداء جبريل[١] عليه السلام إياها:

- في قوله الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

- وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

٥- نداؤها نفسها:

- في قول الله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣].

٦- نداء ولدها إياها: في قول الله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٤]. والنداء ههنا مقدر على ما سيأتي بيانه.

٧، ٨- نداء قومها إياها:

- في قوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم: ٢٧].

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: ٢٨].

(١) سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى بيان أن الأرجح في المراد بالملائكة ههنا هو جبريل عليه السلام..

النداء الأول

نداء التعجب

وهو نداء زكريا عليه السلام إياها: في قول الله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أولا: سياق النداء:

ورد هذا النداء في سياق تعجب سيدنا زكريا -عليه السلام- مما كان يجده من الرزق عند مريم -رضي الله عنها- كلما دخل عليها محرابها الذي تتعبد فيه في بيت المقدس، وكان كافلها الذي يرعاها ويتولى أمرها؛ حيث كان يجد عندها كلما دخل عليها طعاما تتغذى به، لم يعهده من قبل، ولم يَعرف كيف ولا من أين جُلِب إليها.

ثانيا: التفسير والبيان:

- قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾:

الْكَفَالَةُ: الضّمان، في الأصلِ، ثم يستعار للضم والأخذ، يقال منه: كَفَل يَكفُل، وكَفِلَ يكفَل، كعَلِمَ يعلَم، كَفالة وكَفْلاً، فهو كافِلٌ وكفيل، أي: وضَمَّها الله تعالى إلى زكريا -عليه السلام- وجعله ضامنا لمصالحها، قائما بتدبير أمورها[٢].

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب: (ص: ٧١٧) والدر

هـذا علـى قـراءة الكـوفيـين (عـاصـم وحـمـزة والكسائي): (وكَفَّلَها)، بتشديد الفاء، وقرأ باقي العشرة بتخفيفها، (وكَفَلَها)[١]، والمعنى عليها: وضمِنَ زكريا -عليه السلام- القيامَ بأمرها وتَربيتها، فـ (زكريا) علـى قـراءة الكـوفيـين مـفـعـول بـه، وعـلـى قـراءة الجمهور فاعل[٢].

وكانت كفالته -عليه السلام- لها نتيجة الاقتراع الذي تم بينه وبين سدنة بيت المقدس الذين كانوا يحرصون على كفالتها؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

- وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾:

يدل السياق على أن ههنا كلاما محذوفا، تقديره: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبد بمكان تتخذه محرابا[٣]، وكان زكريا -عليه السلام- يتعهدها وكلما دخل عليها وجد عندها رزقا ...الخ[٤].

وفي هذه العبارة الكريمة دلالة واضحة على مكانة مريم -رضي الله عنها- وكرامتها عند الله تعالى؛ فإنه «لما كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول بيَّن سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جرياً على العوائد فحسب؛ لأنه تعالى لما تقبلها أغناها عمن سواه، ولهذا قال في جواب من لعله يسأل: ما فعل زكريا في كفالتها؟: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾»[٥].

و(كُلَّمَا) مركبة من (كل) الذي هو اسم لعموم ما يضاف هو إليه، ومن (ما) الظرفية وصلتها المقدرة بالمصدر، والتقدير: كل وقت أو كل زمان دخل عليها فيه، وتقديم الظرف (عليها) على الفاعل (زكريا) لإظهار كمال العناية بأمر مريم رضي الله عنها[٦].

وقد دل السياق على أنه -عليه السلام- كان يتعهدها كل يوم، وهو اللائق به عليه السلام؛ يدل على ذلك كلمة (كُلَّمَا) «فإنها تقتضي التكرار، فتدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها، كما تدل على وجود الرزق عندها كل وقت كان يدخل عليها فيه»[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾: «التنكير في «رزقـاً» للتعظيم»[٨]، والمعنى: وجد عندها أنواعا

المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٣/ ١٤٤).

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ص: ١٠٨)، ومعاني القراءات للأزهري (١/ ٢٥٢).

(٣) المحراب: صدر البيت، وأشرف مكان فيه، وأرفع مكان في المسجد، وهو أشرف المجالس والمقدم فيها، وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب. [معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤٠٣)، ولسان العرب: ١/ ٣٠٥، مادة (حرب)]

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣/ ٢٣٦).

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٤/ ٣٥٨).

(٦) تفسير أبي السعود (٢/ ٣٠) والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣/ ٢٣٦) بتصرف.

(٧) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٣/ ١٢٣).

(٨) الدر المصون للسمين الحلبي (٣/ ١٤٧).

عظيمة من الرزق، لم يعهدها ولم يعرف من أين ولا كيف وصلت إليها.

«أي: وجد أن الحق سبحانه قد تولاها برزق من غيبه؛ إذ هو سبحانه وتعالى المتولي إنباتها نباتا حسنا، ليكون نباتها من غيب رزقه، فتصلح لنفخ روحه ومستودع كلمته»[١].

أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[٢].

والذي يشير إليه اللفظ والسياق أنه كان طعاما غير معتاد؛ إذ إنه ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فلم يعهده -عليه السلام- من قبل، ولم يعرف من أين ولا كيف كان يأتيها رضي الله عنها.

ولا ريب أن هذا أمر يدعو للعجب الشديد؛ لأنه كافلها الذي يتعهد أمورها كل يوم، فلو أنه -عليه السلام- وجد ذلك عندها مرة أو مرات عدة، ربما لم يسأل، وربما ظن أن أحدا من سدنة بيت المقدس سبقه إلى خدمتها، لكنه -عليه السلام- كان يجد ذلك الرزق عندها كلما دخل عليها، وربما لو كان رزقا معتادا معروفا لم يعجب -عليه السلام- ويسألها متعجبا، لكن السياق يدل على أنه لم يكن رزقا معهودا، وعلى أنه -عليه السلام-كان يجده عندها كل يوم!!. وهذه آية عجيبة اختص الله تعالى بها مريم رضي الله عنها.

- ولهذا سألها -عليه السلام- متعجبا كما حكى القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾.

«وهي جملة مستأنفة استئنافا مبنيا على سؤال مقدر: كأنه قيل: فماذا قال زكريا -عليه السلام- عند مشاهدة هذه الآية العجيبة فأجيب: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾[٣]».

وكلمة (أَنَّى) تشعر بمدى استغرابه، وتدل على شدة تعجبه من وجود ذلك الرزق عندها من وجوه مختلفة: من جهة الزمان أنه ليس زمانه، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه، ومن جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله؛ قاله الحرالي»[٤].

إذ كان -فيما روي- يُغلِق عليها سبعة أبواب، ويخرج، ثم يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فكان يعجب مما يرى من ذلك، ويقول لها تعجبًا مما يرى: «أَنَّى لك هذا»؟ فتقول: هو من عند الله[٥].

ونلاحظ في هذا النداء بعض الدقائق والهدايات:

أولها: نداء زكريا -عليه السلام- لها، وكان من الممكن أن يسألها عن سر وجود هذا الرزق عندها

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٤/ ٣٥٩) باختصار.

(٢) جامع البيان للطبري: (٦/ ٣٥٣- ٣٥٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ٣٠) بتصرف.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٤/ ٣٦٠، ٣٦١).

(٥) أخرجه في جامع البيان (٦/ ٣٥٨) عن ابن عباس والربيع.

من غير أن يناديها، ولكن لما كان الأمر بهذه الغرابة وذاك العجب خاطبها بهذا السؤال التعجبي، وبأسلوب النداء، للمبالغة في إبداء شدة تعجبه وإعلان مدى استغرابه، لما يجده عندها من الرزق العظيم كل يوم، مما لم يعهده من قبل، ولا يعرف من أين ولا كيف يأتيها.

ولا ريب أن أسلوب النداء كان كفيلا بإظهار تلك الحالة وتصويرها أدق تصوير، حتى إنه ليخيل إلينا إقباله عليها مندهشا رافعا من حدة تعجبه بندائه إياها وهي قريبة منه!!؛ ليجذب انتباهها ويستحوذ على جل اهتمامها؛ فتجيبه بما يطمئن قلبه على منزلتها من الله عز وجل.

ثانيا: أنه ناداها بأداة النداء (يا) وهي لا تكون في الحقيقة إلا للبعيد؛ وقد كانت مريم -رضي الله عنها- قريبة منه كما يدل السياق؛ وفي ذلك ما فيه من تعظيمه إياها وإجلاله لقدرها ومنزلتها، لما كان يراه من حالها وعبادتها وتقواها، وهي التي لا تفارق محرابها؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، فإن (كُلَّمَا) تقتضي التكرار كما مر بيانه.

ثالثا: أنه -عليه السلام- ناداها باسمها العلم (مريم) وصرح به في مقام يصح فيه الإضمار، كما حكاه القرآن عنه: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، مع أنه كان من الممكن أن يضمر اسمها ويسألها هكذا: (قال أَنَّى لك هذا؟) وهو صحيح لغة؛ وذلك لتلذذه بذكر اسمها، وسروره وفرحه بما كان يجري لها من الكرامات، وهي العابدة التقية التي يرى من أحوالها كل يوم ما يسر القلب ويشرح الصدر.

وهكذا تضمنت جملة هذا النداء من الدقائق وأدت من المعاني ما لا يمكن أن يؤدى بغيرها.

- فأجابته -رضي الله عنها- ورفعت عنه العجب والاستغراب بما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

وهو استئناف بياني كالذي قبله؛ كأنه قيل: فبماذا أجابته مريم؟، فأجيب: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، «قيل: أرادت من الجنة، وقيل: مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر، فلا تعجب ولا تستبعد»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ دليل على أنه رزق خاص بها، غير معتاد، وأنه لم يجر على يد أحد من البشر، ودليل ذلك «أن زكريا -عليه السلام- تلقى هذا المعنى ولم يعقب، وإلا ما كان ليقنع بهذا الجواب»[2].

ولا ريب أنه -عليه السلام- لم يعقب وتلقى الإجابة كأنه كان يعرفها، لعلمه بمنزلتها من الله عز وجل، ورسوخها في العبادة، وأنها جديرة بتلك الكرامة، كيف لا وهو نبي من أنبياء الله تعالى.

وبهذه الكرامة أظهر الله تعالى مكانتها عنده ومنزلتها لديه عز وجل؛ حيث تكفلها بذاته، وأنبتها نباتا حسنا على عينه، فلم يُجْرِ رزقها على يد أحد من الناس، ولو كان نبي الله زكريا -عليه السلام-!!؛

(١) روح المعاني للآلوسي (٢/ ١٣٥).

(٢) ملخص من معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤٠٤)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٢٦، ٤٢٧).

ولهذا صح أن يقال: إن كفالة سيدنا زكريا -عليه السلام- لها كانت من حيث الظاهر أمام الناس، أما كفالتها على الحقيقة فكانت من قِبَل الله تعالى!!.

- ولما أجابته -عليه السلام- بخرقه سبحانه وتعالى لها العادة عللت ذلك وأكدته بقولها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

«وهو تعليل لكونه من عند الله؛ إما من تمام كلامهما فيكون في محل النصب، وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ إشعار بأنه عطاء متصل، بغير تقدير لكثرته، وبغير استحقاق تفضلا منه تعالى، فلا يُحد ولا يُعد[(٢)].

ومن رزق الله تعالى إياها بغير حساب: «أنه تعالى بلّغها فوق ما تمنّت أمُّها، وأفردها لطاعته، وتولاها بما تولّى به أولياءه، حتى أفضى جميع من في عصرها العجب من حسن توليه سبحانه أمرَها[(٣)].

النداء الثاني

نداء التطهير والاصطفاء (الكمال البشري)

وهو نداء الملائكة - جبريل عليه السلام- إياها في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢]. وهو النداء الأول من ثلاث نداءات تتوالى في هذا السياق من نفس السورة الكريمة..

أولا: سياق النداء:

بعد أن ذكر الله تعالى طرفا من قصة مريم -رضي الله عنها- ذكر طرفا من قصة سيدنا زكريا -عليه السلام-، ثم رجع الحديث إلى قصة مريم -رضي الله عنها- مرة أخرى؛ لبيان فضلها وشرفها، ومكانتها عنده سبحانه، "وهذا على عادة أساليب العرب، متى ذكروا شيئا استطردوا منه إلى غيره، ثم عادوا إلى الأول إن كان لهم غرض في العود إليه"[(٤)].

فهذا النداء وارد في سياق بيان فضل الله تعالى على مريم -رضي الله عنها-، وبيان منزلتها عنده سبحانه وتعالى، وتمهيدا لبشراها بسيدنا عيسى عليه السلام، وتبرئة لها -رضي الله عنها- عن ما رماها به اليهود -قبحهم الله-.

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ٣٠) باختصار.
(٢) ملخص من نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٦٢)، وتفسير أبي السعود (٢/ ٣٠).
(٣) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٣٧) بتصرف.
(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٦).

والآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥]، من عطف القصة على القصة.

ثانيا: التفسير والبيان:

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم -رضي الله عنها- عن أمره سبحانه لهم بذلك، والمعنى: واذكر يا محمد ﷺ وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم ... الخ.

وقد اختلف في المراد بالملائكة ها هنا:

فقيل: المراد جبريل -عليه السلام- وحده، والتعبير بالجمع للتعظيم؛ وهو قول أكثر المفسرين،[١] وهو كقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل.

قالوا: وهذا وإن كان عدولا عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه؛ لورود ذلك نصا في سورة مريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم: ١٧]"[٢]. فقد دل على أن المتكلم مع مريم -رضي الله عنها- هو جبريل عليه السلام.

قلت: ولوروده أيضا نصا هنا في سورة آل عمران في السياق نفسه؛ فإنها أبدت عجبها الشديد حين بُشِّرت بنبي الله عيسى من غير مس ذكر وردت إجابة الملَك إياها بالإفراد؛ قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٧] "وقيل الجمع على حقيقته، والمراد: جبريل -عليه السلام- ومعه جمع من الملائكة؛ لأنه نقل أنه كان لا ينزل لأمر إلا ومعه جمع من الملائكة"[٣].

قال الطبري: يجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، كما يقال في الكلام: "خرج فلان على بغال البريد"، وإنما ركب بغلا واحدا، "وركب السفن"، وإنما ركب سفينة واحدة، قال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيسا جاز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه، فلما كان جبريل رئيس الملائكة، وقلما يبعث إلا ومعه جمع صح ذلك[٤].

قلت: وهذا القول الأخير هو الأَوْلى - في رأيي؛ لأنه في باب التشريف أعظم، والمناسب لتلك البشارة العظيمة.

واختلف أيضا، هل كان هذا القول مشافهة أم إلهاما وإلقاء في الروع؟:

والراجح - وهو قول المحققين من المفسرين[٥]- أنه كان مشافهة لها؛ من جبريل -عليه السلام-، ومعه

(١) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٤٣٨)، والمحرر الوجيز (١/ ٤٣٣)، والتفسير الكبير (٨/ ٢١٧)، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/ ٢٨١)، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) التفسير الكبير (٨/ ٢١٧)، بتصرف.

(٣) البحر المحيط (٣/ ١٤٦)، بتصرف.

(٤) جامع البيان: ٦/ ٣٦٥، بتصرف يسير.

(٥) يراجع: التفسير البسيط للواحدي (٥/ ٢٥٠)، والتفسير الكبير للرازي (٨/ ٢١٧)، ولطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٤٢)، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٣/ ١٤٦)، ومدارك التنزيل للنسفي (١/ ٢٥٤).

جمع من الملائكة؛ تشريفا وتعظيما لمريم رضي الله عنها، واحتفاء بهذه البشرى العظيمة، وهو ما يدل عليه ظاهر الآية، وهو الذي جاء مصرحا به في آيات سورة مريم؛ حيث تمثل لها جبريل -عليه السلام- بشرا سويا وكلَّمها مشافهة؛ يقول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٧ - ٢١].

"وقيل: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى -عليه السلام- في قوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧][1].

قلت: هذا قياس مع الفارق؛ لأنه صرح في حق مريم -رضي الله عنها- بأن الملك تمثل لها بشرا سويا وكلَّمها مشافهة. فالأول هو الأولى؛ لقوة حجته، وفيه تعظيم لقدر مريم رضي الله عنها، وإعلام بفضلها وكرامتها على الله عز وجل.

** وبناء عليه: ذهب بعض العلماء إلى أن مريم -رضي الله عنها- نبية؛ بدليل مخاطبة الملائكة لها[2].

ولكن جمهور العلماء على أنه لم تنبأ امرأة قط؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧][3].

"وبدليل أن الملائكة قد كلموا من ليس بنبي إجماعا، فقد جاء في الحديث الشريف أنهم كلموا رجلا خرج لزيارة أخ له في الله تعالى، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه[4]، ولم يقل أحد بنبوته"[5].

وبناء عليه: لا يقتضي كلام الملائكة لمريم -رضي الله عنها- نبوتها، وهو الصحيح.

---

(١) التفسير الكبير (٨/ ٢١٧)، وتفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٥٢).

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨٣، ٨٤) وانتصر له، واختاره الطاهر بن عاشور (٣/ ٢٤٤).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٤)، والتفسير الكبير (٨/ ٢١٧)، والبحر المحيط (٣/ ١٤٧)، وروح المعاني للآلوسي (٢/ ١٤٨).

(٤) أخرج مسلم في صحيحه: في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله، (٤/ ١٩٨٨)، ح(٢٥٦٧): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ).

(٥) روح المعاني للآلوسي (٢/ ١٤٨)، بتصرف يسر.

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

هذا هو نداء الملائكة الأول لمريم -رضي الله عنها- في هذا السياق.

ونلاحظ أنه قد جاء متضمنا جملا من الدقائق والهدايات:

التي تدل على عظيم فضلها وشريف منزلتها عند الله تعالى، وذلك من جهات عدة:

أولها: مجيء هذه البشريات العظيمة بأسلوب النداء، وهو الأسلوب الذي يحمل مزيدا من الإعلام والإعلان والتنبيه؛ لتصغى إليه بجميع جوارحها، وتميل إليه بقلبها وعقلها، ثم هو إلى جانب ذلك دالٌّ على مزيد فضلها وعلو منزلتها عند الله تعالى؛ كيف لا، وهو الأسلوب الذي خاطب الله تعالى به أنبياءه ورسله، وعباده المؤمنين، بأوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، ... إلخ من الأمور العظام، والخطوب الجسام.

وثانيها: مجيء التعبير بلفظ القول (قالت)، بأن قيل: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ [آل عمران: ٤٢] دون الاكتفاء بلفظ النداء (نادي)، حيث لم يُقل: (وإذ نادت ...)؛ للدلالة على أن الملائكة -جبريل ومن معه من الملائكة- قد جاءوا إليها، وكلمها إمامهم -جبريل- مشافهة عن قرب لا عن بُعد؛ إذ القول كناية عن الكلام، والكلام يكون من قريب، أما النداء فيكون من قريب أو من بعيد؛ وفي ذلك بيان لعظيم قدرها -رضي الله عنها-، وكرامتها على الله عز وجل.

وثالثها: مجيء التعبير بـ الجمع (الملائكة) والمتكلم واحد، وهو جبريل -عليه السلام- على ما جاء مصرحا به في سورة مريم - كما بُيِّنَ-؛ إظهارا لكمال فضلها وعلو شأنها عند الله تعالى، وبيانا لعظمة ما حملته الملائكة إليها من البشريات العظيمة، حتى إنه لتأتيها تلك البشريات عن طريق جبريل -عليه السلام- في جمع من الملائكة!!.

ورابعها: مجيء التعبير بأداة النداء التي للبعيد (يا)، مع أن الملَك -جبريل عليه السلام- قد خاطبها من قرب، على ما صُرّح به في سورة مريم؛ للإعلام برفعتها في المنزلة وبُعدها في الفضل والشرف.

وخامسها: نداء الملائكة لها باسمها (مريم)، تأنيسا لها، وتفخيما وتعظيما وتبجيلا.

وسادسها: أن الله تعالى أسمع مريم -رضي الله عنها- كلام الملائكة شفاها، ولم يجعل ذلك لأنثى غيرها، فدل ذلك على عظيم منزلتها ومكانتها من الله تعالى.

وسابعها: ما تضمنه ذلكم النداء العظيم من الفضائل العظام التي خصت بها مريم وبلغت بها درجة الكمال البشري، على ما نصت عليه الآيات الكريمات، وبيانه:

أولا: اصطفاؤها: وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وهذه أول منزلة وكرامة حملها هذا النداء العظيم لمريم رضي الله عنها، وقد جاءت مؤكدة بـ (إنَّ) وإسمية الجملة، زيادة في تأكيد مضمونها.

والاصْطِفَاءُ: الاخْتِيارُ، واصْطَفاه: اختارَهُ؛ قال

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ ﴾ [آل عمران: ٤٢][1].

والمعنى: إن الله اختارك واجتباك لطاعته، وفضَّلك، وخصّك بكرامته[2]. وهذا فيض فضل ومنةٍ وجودٍ من المعطي الوهاب سبحانه وتعالى، لحِكَمٍ جليلة لا يعلمها إلا هو.

ثانيا: تطهيرها: وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وهذه هي المنزلة والكرامة الثانية التي حملها هذا النداء الكريم لمريم رضي الله عنها، وهي معطوفة على الجملة المؤكدة السابقة، فهي مؤكدة مثلها.

وقد اختُلف في المراد بهذا التطهير على أقوال عدة، كلها من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد؛ لأنها كلها تعود إلى معنى جامع، فتجتمع ولا تفترق، وتدل على كمالها البشري رضي الله عنها.

حيث ورد أن المعنى: وطهرك من كل ما يَصِمُ النساء في خَلْقٍ أو خُلُقٍ أو دِينٍ؛ قاله مجاهد وغيره[3]. وقيل المعنى: وطهر دينك من الرّيب والأدناس[4]، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد، والطبع السليم.

وقيل المعنى: وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم[5].

وقيل المعنى: وطهرك من الحيض والنفاس؛ قاله الزجاج، ونقله غير واحد من المفسرين[6]؛ وردَّه ابن عطية قائلا: «وهذا يحتاج إلى سند قوي وما أحفظُه»[7].

وأعظِم وأكرِم بهذه المنزلة وتلك الكرامة التي نالتها البتول الطاهرة مريم -رضي الله عنها-، والتي تدل على كمال إيمانها بالله تعالى، وما يقوم عليه من الخلال العظام، التي لا تكون إلا لخاصة الخاصة من أولياء الله تعالى.

ثالثا: اصطفاؤها على نساء العالمين: وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٤٨٨) ولسان العرب (١٤/ ٤٦٣) مادة (صفا)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٧٨).

(٢) جامع البيان للطبري (٦/ ٣٩٣)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٠)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٣٨) ولطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٤٢).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٣).

(٤) جامع البيان (٦/ ٣٩٣، ٣٩٤) ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٠) والنكت والعيون (١/ ٣٩٢)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٣٨)، وزاد المسير (١/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (٤/ ٨٢)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٨٨).

(٥) التفسير الكبير (٨/ ٢١٧).

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٠) والنكت والعيون (١/ ٣٩٢)، وتفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٥٢)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٣٨)، وزاد المسير (١/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (٤/ ٨٢)، وفتح القدير (١/ ٣٨٨).

(٧) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٣).

وهذه هي المنزلة والكرامة الثالثة التي حملها هذا النداء العظيم لمريم رضي الله عنها، وهي معطوفة على الجملتين المؤكدتين السابقتين، فهي مؤكدة مثلهما. وجمهور المفسرين على أن الاصطفاء الأول غير الثاني.

أما الاصطفاء الأول: فهو اصطفاء الولاية، وهو جعلها منزهة زكية، وقد سبق بيانه المراد منه.

وأما الاصطفاء الثاني، فهو اصطفاء التفضيل: وقد قال جمهور المفسرين: إنه اصطفاء على نساء العالمين في زمانها، بطاعتها لله تعالى، أو اصطفاء على نساء العالمين إلى يوم الدين لولادة عيسى -عليه السلام- من غير أب[1].

قال القاضي ابن عطية: «إن جعلنا ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ عاما فيمن تقدم وتأخر كان الاصطفاء مخصوصا في أمر عيسى -عليه السلام- وأنها اصطفيت لتلد من غير فحل، وإن جعلنا الاصطفاء عاما كان قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ مخصوصا بعالم ذلك الزمان»[2].

وبهذا، حمل هذا النداء العظيم لمريم البتول الطاهرة -رضي الله عنها- من الفضائل والخصائص ما بوأها مرتبة الكمال البشري، الذي لم ينله إلا ثلة من البشر، وما جعلها في مقدمة نساء دهرها رفعة ومنزلة ومكانة عند الله تعالى، وما اختصها الله به دون نساء الدنيا؛ لتكون محضنا لإنجاب نبي الله عيسى -عليه السلام- من غير أب، وليكون هو كمثل آدم -عليه السلام- في تجلي قدرة الله تعالى في الخلق من غير أب، ولتكون هي وابنها آية للعالمين.

أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[3].

النداء الثالث

نداء التأنيس، والتنويه، والإعجاب بحالها

وهو نداء الملائكة - جبريل عليه السلام- إياها: في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي

(١) جامع البيان (٦/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٠)، والنكت والعيون (١/ ٣٩٢)، وتفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٥٢)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٣٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٦١) (١/ ٣٦٢)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٣، ٤٣٤)، وزاد المسير (١/ ٢٨١)، والتفسير الكبير (٨/ ٢١٨)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٨٢)، ومدارك التنزيل (١/ ٢٥٥)، والبحر المحيط (٣/ ١٤٦، ١٤٧)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٨٨)، والتحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤)..

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٤٣٣، بتصرف يسير.

(٣) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل عائشة رضي الله عنها: (٥/ ٢٩)، ح(٣٧٦٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها: ٤/ ١٨٨٦، ح(٢٤٣١).

مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

أولا: سياق النداء: هذا هو نداء الملائكة الثاني لمريم -رضي الله عنها-، وهو وارد أيضا في سياق بيان فضل الله تعالى عليها، ومنزلتها عنده سبحانه وتعالى، وفيه تأنيس لها، وتنويه بشأنها، وإعجاب بحالها الإيمانية، وهو أيضا تمهيد لنداء تبشيرها بسيدنا عيسى عليه السلام، -البشرى الكبرى- لقصد تأنيسها وتثبيت قلبها.

قال الطاهر بن عاشور: "وإعادة النداء في قول الملائكة: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ لقصد الإعجاب بحالها؛ لأن النداء الأول ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ ... ﴾ [آل عمران: ٤٢] كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملا في التنبيه الذي ينتقل منه إلى لازم، وهو التنويه بهذه الحالة الإيمانية، والإعجاب بها، ..... وهذا الخطاب مقدمة للخطاب الذي بعده وهو: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥] لقصد تأنيسها بالخبر الموالي؛ لأنه لما كان حاصله يجلب لها حزنا وسوء قالة بين الناس، مهد له بما يجلب إليها المسرة، ويوقنها بأنها بمحل عناية الله تعالى، فلا جرم أن تعلم بأن الله جاعل لها مخرجا وأنه لا يخزيها"[1].

ثانيا: التفسير والبيان: تضمن هذا النداء جملا من الدقائق والهدايات:

أولا: أعاد الملَك -جبريل عليه السلام- نداءها بأداة النداء للبعيد؛ إشعارا ببعد مكانتها وارتفاع منزلتها، وكلَّمها شفاها مرة أخرى، تكريما وتبجيلا.

ثانيا: في هذا النداء تكريم لمريم، وإعلام بشأنها، وتنويه بحالها مع ربها سبحانه وتعالى، إضافة إلى ما فيه أيضا من تأنيس نفسها، وتثبيت قلبها، لتكون على أهبة الاستعداد لما تبشر به بعدُ من البشرى الكبرى بعيسى عليه السلام.

إذ الأمر في قوله تعالى: (اقنتي)، و(اسجدي)، و(اركعي) ليس أمرا لإنشاء فعل القنوت والسجود والركوع، وإنما هو إنشاءٌ - أمر- أريد به الإخبار عن حالها مع الله تعالى، ومقامها في عبادته عز وجل، وفيه أيضا حث لها على مداومة طاعتها وخشوعها وخضوعها لله عز وجل؛ لأن التي اصطفاها الله تعالى لعبادته على نساء دهرها، وطهرها من كل الأدناس في خَلْقها وخُلُقها ودينها، واصطفاها بالتفضيل على نساء العالمين إلى يوم الدين لولادة عيسى -عليه السلام- من غير أب؛ لا تُؤمر أمر إنشاء لفعل القنوت والسجود والركوع، إذ هي المصطفاة الممدوحة قَبْلُ بذلك وأكثر، ثم هي العابدة التقية الراكعة الساجدة القانتة التي لا تفارق محرابها ولا تفتر عن عبادة ربها؛ يدل على ذلك قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فهو دليل على أنه ما دخل عليها في أي وقت إلا وجدها في محرابها!!.

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤).

ومن كانت في تلك المنزلة الإيمانية لا تؤمر أمر إنشاء لفعل القنوت والسجود والركوع؛ لأنها لا تفتر عن ذلك أصلا. وإنما أمرها بذلك شبيه بأمر الله تعالى لإمام الأنبياء والمرسلين ﷺ بالتقوى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]؛ إذ المعنى: دُمْ على التقوى وازدد منها. فقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ﴾ معناه:

«أديمي ملازمة بساط العبادة، وداومي على الطاعة، ولا تقصّري في استدامة الخدمة، فكما أفردك الحقّ بمقامك، كوني في عبادته أوحد أهل زمانك»[١]. والقنوت: إدامة الطاعة، صلاة كانت أو غيرها من العبادات، ولهذا قال: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾ [الزمر: ٩][٢]. قال قتادة: أديمي الطاعة[٣]. ومادة القنوت تدل على الإخبات والطاعة والاستكانة[٤].

ثالثا: في قوله تعالى: ﴿ لِرَبِّكِ ﴾ مزيد امتنان عليها بأن الذي تولى تربيتها ورعايتها إنما هو ربها سبحانه وتعالى، وفيه أيضا «إشارة إلى تفرده تعالى بالعبادة وتخصصه بها»[٥].

رابعا: أُخبر عن عبادتها -رضي الله عنها- بأسلوب النداء المتضمن الأمر بالمداومة على هذه الأعمال الثلاثة: (القنوت، والسجود، والركوع) خاصة؛ لأن أسلوب النداء فيه تنبيه وإعلام وتعظيم، ولأن هذه الأعمال الثلاثة أجل مراتب التقرب إلى الله تعالى؛ إظهارا لتمام طاعتها، وكمال تضرعها وخضوعها وخشوعها واستكانتها لربها سبحانه، وشكرًا له عز وجل على ما أكرمها به من الاصطفاء بالطاعة والتَّطهير من الأدناس على نساء دهرها، والتفضيل على نساء الدنيا إلى يوم الدين لولادة عيسى -عليه السلام- من غير أب.

وبهذه الطاعة التامة الدائمة، والعبادة الكاملة المتواصلة، والخشوع والخضوع، والحياة الموصولة بالله تعالى تم إعدادها -رضي الله عنها- للأمر الجلل والمهمة العظيمة؛ (ولادة عيسى -عليه السلام- من غير أب). وفي ذلك من التكريم والتعظيم ما فيه...

النداء الرابع

نداء البشارة الكبرى

بنبي الله عيسى عليه السلام، وما خصه الله تعالى به وهو نداء الملائكة - جبريل عليه السلام- إياها: في قول الله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٢٤٢)، ويراجع: البحر المحيط (٣/ ١٤٧)ن وتفسير أبي السعود (٢/ ٣٥)، وروح المعاني (٢/ ١٦٦)، وفتح القدير (١/ ٣٨٨)..

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٥٦).

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٨٤).

(٤) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للبقاعي (٣/ ٣٤١).

(٥) البحر المحيط (٣/ ١٤٧).

ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٥١].

أولا: سياق النداء: هذا هو نداء الملائكة الثالث لمريم -رضي الله عنها-، وهو وارد -كسابقه- في سياق بيان فضل الله تعالى عليها، وبيان منزلتها عنده سبحانه؛ حيث تضمن بشارتها بالبشارة الكبرى الخارقة للعادة؛ وهي اختصاصها بحمل وولادة نبي الله عيسى -عليه السلام- من غير أب، وما سيخصه الله تعالى به من الفضائل، ويكلفه ويشرفه به من النبوة، ويؤيده به من المعجزات.

ثانيا: التفسير والبيان: قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ..... ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وما بينهما اعتراض، والظرف (إِذْ) معمول لمحذوف تقديره (اذكر)، والمعنى: اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم، يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ...الخ[1]. وقد تضمن هذا النداء جملا من الدقائق والهدايات: حيث تضمن وجوها من التكريم والتعظيم لمريم -رضي الله عنها-:

فأولا: التعبير بـ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾للدلالة على أن هذا النداء كان مشافهة وعن قرب، على ما سبق بيانه.

وثانيا: ورد النداء من الملائكة بالجمع، مع أن الأرجح أن المنادي جبريل -عليه السلام- وحده، ومعه جمع من الملائكة -كما سبق بيانه-؛ رعاية لهذا الجمع الذي معه، وتبجيلا لها وتكريما وتعظيما.

وثالثا: ورد إعلامها بتلك البشارة العظيمة بأسلوب النداء؛ لما يحمله من التنبيه والإيقاظ لكل حواسها ومشاعرها، لتتأهب وتستعد نفسيا وروحيا لتلقيها؛ إذ إنها بشارة بأمر خارق لنواميس البشر.

ورابعا: ورد خطابها بأداة النداء التي للبعيد (يا)؛ لإظهار بُعْدِ منزلتها في الفضل، وسمو مكانتها عند الله تعالى.

وخامسا: أُكدت لها تلك البشارة العظيمة بـ(إنَّ) مع أن البشارة من الله تعالى لا تحتاج أي تأكيد؛ لأنها لما كانت بشارة بأمر خارق لعادات البشر وفوق

(١) التبيان في إعراب القرآن للعكبري (١/ ٢٦٠)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٢١)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٩١)

مقدار العقول، لا جرم سيقت مؤكدة؛ مناسبة لحالها، وزيادة في تطمينها وتثبيتها.

وسادسا: أُسندت بشارتها إلى عز وجل؛ حيث قال لها جبريل - عليه السلام-: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾؛ إظهارا لكمال عناية الله تعالى بها، وتعظيمه سبحانه وإجلاله لها.

وسابعا: اختير لها لفظ البشارة ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ زيادة في التثبيت والتطمين، لما يحمله هذا اللفظ من الفرح والسرور.

و «البشارة والبشرى: هي الخبر السار، وبَشَرته، وأَبشرته وبشَّرته: أخبرته بسارٍّ بسط بشْرَة وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، وأكثر استعماله في الخير، واستعماله في الشر على سبيل المجاز، وقيل: على الحقيقة، فتكون مشتركا»[(١)].

وثامنا: أن هذا النداء تضمن بشارتها -رضي الله عنها- بما فضلها الله تعالى به على نساء الدنيا أجمعين، وهي البشارة بحملها وولادتها نبي الله عيسى -عليه السلام- من غير مس ذكر لها، وهو الأمر العجيب الخارق للعادة الذي لم يجر لامرأة قبلها، ولا يجري لامرأة بعدها.

تاسعا: تضمن هذا النداء الكريم بشارتها بما خص الله تعالى به ولدها نبي الله عيسى -عليه السلام- من الأوصاف الشريفة العظيمة، وما كلَّفه الله به من النبوة، وما أيده به من المعجزات الظاهرات: وأول هذه البشارات: في قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾: أي: إن الله يبشرك بولد يكون وجوده بكلمة منه سبحانه، أي يقول له: كن فيكون، من غير مس ذكر، على ما تعارف عليه البشر، فالمراد بالكلمة: قول الله عز وجل: (كن) فكان؛ قاله ابن عباس[(٢)].

وعلى ذلك أكثر المفسرين، وأيدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩][(٣)].

وفي ذلك من التعظيم والتكريم ما لا يخفى؛ حيث «نُصَّ على أنه -عليه السلام- يكون بكلمة من الله تعالى، مع أن كل مخلوق إنما هو كائن بكلمة (كن) أيضا؛ لأن السبب المتعارف عليه وهو (الأب) كان مفقودا في حقه -عليه السلام-، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم؛ فجُعِل كأنه نفس الكلمة، كما أن من غلب عليه الجود والكرم يقال فيه على سبيل المبالغة: إنه نفس الجود، ومحض الكرم، فكذا هاهنا»[(٤)].

ولفظة (مِنْ) في ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾: ليست للتبعيض هاهنا؛ وإنما هي لابتداء الغاية مجازا، متعلقة بمحذوف وقع صفة لـ (كلمة) أي: بكلمة كائنة منه عز وجل[(٥)].

---

(١) يراجع: التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم: (ص٦٠)، وبصائر ذوي التمييز للفيروزابادي: (٢/ ٢٠٠).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٦١)، وزاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٨٢) وتفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٦).

(٣) روح المعاني (٢/ ١٥٤).

(٤) التفسير الكبير (٨/ ٢٢١) بتصرف.

(٥) التبيان في إعراب القرآن للعكبري (١/ ٢٦٠)، والتفسير

وثانيها: في قوله تعالى: ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾:

ولفظ (المسيح): قيل: هو علم موضوع، وأصله بالعبرانية (المشيح)، فعربته العرب وغيروا لفظه، ومعناه: المبارك، وعليه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١][1].

وقيل: هو مشتق وعليه الأكثرون، ثم ذكروا فيه وجوها أولاها: أنه إنما سمي عيسى -عليه السلام- مسيحا؛ لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلا برئ من مرضه بإذن الله؛ قاله ابن عباس[2].

ذُكِرَ عليه السلام بلقبه (المسيح) قبل ذكر اسمه: للدلالة على كونه شريفا رفيع الدرجة، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولا بلقبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص.

وقال الله تعالى: ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾: مع أن الخطاب كان مع مريم رضي الله عنها؛ لإعلامها بأن الله تعالى مُحْدِثُه منها وحدها بغير أب، وفي ذلك ما فيه من الاختصاص والفضل له عليه السلام ولها رضي الله عنها[3].

وفيه أيضا ردٌّ لما زعمه النصارى من ألوهيته -عليه السلام- أو بنوته لله تعالى؛ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وفيه أيضا تعظيم لها وتكريم؛ حيث صُرّح باسمها الذي يحمل كل معاني الطهر والنقاء والشرف.

وثالثها: في قوله تعالى: ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾:

الوجيه الذي له المنزلة الرفيعة عند ذوي القَدْر والمعرفة، ويقال: قد وَجُهَ الرجلُ يَوْجُه وَجَاهة، ولفلان جَاهٌ عند الناس ووجاهة عند الناس، أي منزلة رفيعة[4]. والمعنى: ويجعله الله تعالى ذا جاه وشرف وقدر في الدنيا والآخرة. ووجاهته في الدنيا: النبوة، وفي الآخرة: الشفاعة وعلو الدرجة[5].

ورابعها: في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾:

أي: ويجعله الله تعالى أيضا من المقربين منزلة منه سبحانه، أي: ممن علت مكانتهم عنده تعالى؛ قال قتادة والربيع: يعني أنه ممن يقرّبهم الله يوم القيامة[6].

وخامسها: في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾

و(المهد) إما أنه حِجْر أمه، أو أنه هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع، والمعنى أنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، وقبل أوان الكلام[7]، وفيه بشارة عظيمة لأمه -رضي الله عنها- بأن ابنها يتكلم

الكبير (٨/ ٢٢٢) وتفسير أبي السعود (٢/ ٣٦).

(١) الكشاف (١/ ٣٦٣)، وروح المعاني (٢/ ١٥٤).

(٢) التفسير الكبير (٨/ ٢٢٢).

(٣) الكشاف (١/ ٣٦٣)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٢٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٢)، وزاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٨٣)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٢٣)،.

(٥) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٩١)، وتفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٦).

(٦) جامع البيان للطبري (٦/ ٤١٥).

(٧) التفسير الكبير (٨/ ٢٢٤).

في مهده مع الناس آية دالة على براءتها، مما عسى أن يقذفها به المتعسفون الظانون.

و(الكهل) في اللغة: ما اجتمعت قوته وكمُل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات إذا قوي وتم[١].

والمعنى: أنه -عليه السلام- يكلم الناس حال كونه في المهد، وحال كونه كهلا على حد واحد وصفة واحدة، كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة، ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز[٢].

ومن كلامه وهو في المهد: ما قاله لبني إسرائيل حين أشارت أُمه إليه ليدافع عن عرضها: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣]. أما كلامه في كهولته، فهو كلام الوحي والرسالة.

وسابعها: في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾:

أي: ويجعله الله تعالى من الكاملين في التقى والصلاح.

وصفه الله تعالى بكونه من الصالحين بعد وصفه بكونه كلمة منه سبحانه، وكونه وجيها في الدنيا والآخرة، وكونه من المقربين عنده تعالى، وكونه مكلما للناس في المهد، وفي الكهولة؛ لأنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا، لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظبا على النهج الأصلح، والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح؛ ولهذا لما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الوصف ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الذي يدل على أرفع الدرجات[٣].

وثامنها: في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨]. بعد أن بشرها جبريل -عليه السلام- بأوصافه العظيمة الشريفة -سالفة الذكر- بشرها بما هو تمهيد لفضيلته الكبرى ومهمته العظمى -رسالته إلى بني إسرائيل-، وهي أن الله تعالى سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ومعنى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: أي الكتابة، وقيل: جنس الكتب الإلهية، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾: أي العلوم وتهذيب الأخلاق[٤]. ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ يعني وسيعلمه التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ وسيعلمه الإنجيل الذي ينزل عليه. قال الطبري: «هذا إخبار من الله تعالى لمريم -رضي الله

(١) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، وغريب القرآن للسجستاني (ص: ٥٣٠)، والكشاف (١/ ٣٦٤)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٢) الكشاف (١/ ٣٦٤)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٢٤، ٢٢٥)، وروح المعاني (٢/ ١٥٦).

(٣) التفسير الكبير (٨/ ٢٢٥، ٢٢٦) بتصرف.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٧٢)، والمحرر الوجيز (١/ ٤٣٨)، وزاد المسير (١/ ٢٨٤) والتفسير الكبير (٨/ ٢٣٠).

عنها- ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة ورفعة المنزلة والفضيلة»[١].

وتاسعها: في قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وهذه هي أعظم البشارات لها -رضي الله عنها- في شأن ولدها -عليه السلام-، وهي أن الله تعالى سيكلفه ويشرفه بالرسالة إلى بني إسرائيل، ويؤيده بالمعجزات الظاهرات؛ تصديقا له في رسالته.

فهذه الآية الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ من تتمة بشارات الملائكة لمريم رضي الله عنها، وهذا هو الأظهر[٢]، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾

والمعنى[٣]: وسيجعله الله تعالى رسولا إلى بني إسرائيل، قائلا لهم: ﴿ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي: بأني قد جئتكم ببرهان يدل على صدقي في أنني رسول من قبل الله تعالى، وهو ما أيدني الله تعالى به من المعجزات الظاهرات:

وأول هذه الآيات المعجزة: ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ أي: وآيةُ صدقي أنني أُصور لكم تمثالا كهيئة الطير وشكله، ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ أي: فأنفخ في تلك الصورة فتصير طيراً بإذن الله عز وجل.

والآية المعجزة الثانية: ﴿ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ ﴾ أي: وأُشفي (الأكمه) أي الذي يولد أعمى[٤]، وأُشفي المصاب بالبرص، وهما علتان أعجزتا الأطباء، أي أشفيهما بقدرة الله تعالى.

والآية المعجزة الثالثة: ﴿ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ أي: وأُحيي الموتى بمشيئة الله تعالى وقدرته. وفي تكرير عبارة «بإذن الله» دفعٌ لما يزعمه النصارى من ألوهيته عليه السلام.

والآية المعجزة الرابعة: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ ﴾ أي: وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشُكُّون فيها، ولا يعلمها أحد من الناس غيركم، ومن ذلك أني أخبركم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: إن فيما أتيتكم به من المعجزات الظاهرات لبرهان واضح قوي يدل على صدقي فيما أبلغ عن ربي، أي: إن كنتم من أهل التصديق الذين يتأتى منهم

(١) جامع البيان (٦/ ٤٢٢).
(٢) نص عليه ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٤٣٨).
(٣) يراجع: التفسير البسيط للواحدي (٥/ ٢٦٦)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٤١)، والكشاف (١/ ٣٦٤)، والمحرر الوجيز (١/ ٤٣٨)، وزاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٨٤)، والتفسير الكبير (٨/ ٢٣٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧)، وتفسير أبي السعود (٢/ ٣٨)، وغيرها من كتب التفسير.
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤١٤) وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٠٥).

الإيمان بآيات الله تعالى دلتكم على صحة رسالتي والإيمان بها.

وعاشرها: في قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٠- ٥١].

وقد تضمن بشارتها بما سيخبر به ولدها -عليه السلام- بني إسرائيل عن طبيعة رسالته، قائلا:

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي: وسيخبر بني إسرائيل قائلا: وجئتكم مقررا لرسالة موسى -عليه السلام-، ومؤمنا بما جاء به في التوراة.

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ أي: وجئتكم لأحلّ لكم بعض الأشياء التي كانت محرمة عليكم في شريعة موسى -عليه السلام.

﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: وجئتكم بمعجزة باهرة تدل على صحة رسالتي، وقد كرّرت هذه العبارة للتأكيد. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: فخافوا الله وأطيعوا أمري، وفيه تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أي: وأنه -عليه السلام- سيقرر لهم أن تلك المعجزات الباهرات التي أيده الله تعالى بها لن تخرجه عن أن يكون عبدا لله مخلوقا له سبحانه، والمعنى: أنا وأنتم سواء في العبودية لله عز وجل. ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: فأخلصوا العبادة لله تعالى، فإن عبادته تعالى وطاعته هي الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التباس.

وهكذا تضمن هذا النداء الكريم لمريم -رضي الله عنها- البشارة العظمى التي أبانت عن مكانتها عند الله تعالى ومنزلتها لديه سبحانه، وتضمنت تفضيلها على نساء العالمين إلى يوم القيامة، وهي البشارة بحملها وولادتها نبي الله عيسى -عليه السلام- من غير أب، على غير مقاييس البشر، وبشارتها بما اختصه الله تعالى به من الفضائل العظام، والخصائص الجسام، وما أيده به من الحجج الدامغات والمعجزات الواضحات.

كما تضمن هذا النداء الكريم تبرئة ساحتها -رضي الله عنها- مما رماها به اليهود من الإفك والبهتان، ومما زعمه النصارى وادعوه من ألوهية ابنها -عليه السلام-، أو بنوته لله عز وجل، وذلك بالدلائل القاطعة على بنوته لمريم رضي الله عنها، وعبوديته لله تعالى.

النداء الخامس

نداء الحياء والحزن والإشفاق

نداؤها نفسها: في قول الله تعالى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٢- ٢٣].

أولا: سياق النداء: ورد هذا النداء في مشهد هو الأشد هولاً في مشاهد قصة مريم -رضي الله عنها-

؛ حين انتبذت بحملها من أهلها مكانا قصيا، وألجأها المخاض إلى جذع النخلة، وهي ضعيفة، وحيدة فريدة، بعيدة عن أهلها وأحبابها، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض لها، وتجاهد آلامًا جسدية مبرحة، فوقها آلامٌ نفسيةٌ قاتلة؛ ولا معين لها ولا ناصر، في أمر لا يصدقه أحد من البشر إلا بمعجزة إلهية؛ لأنه فوق عقولهم، خارج عن مقاييس عاداتهم.

لقد صارت قاب قوسين أو أدنى من الولادة؛ وهي الطاهرة النقية العفيفة، التي يشار إليها بالبنان في الصلاح والتقوى، ولم يمسسها بشر، ولم تك يوما ما بغيا، كيف تواجه قومها؟!!، وبأي منطق تجيبهم؟!!. فما كان منها بطبيعة البشر -مع أنها العارفة بربها، الواثقة من تأييده ونصره- إلا أن صرخ حياؤها ونطق تفجعها و إشفاقها؛ فنادت متمنية أن لو ماتت قبل أن يحدث لها ذلك، وكانت شيئا منسيا، لا يؤبه له، ولا يعار اهتماما!!!.

ثانيا: التفسير والبيان: لما بُشِّرت مريم -رضي الله عنها- بالأمر الخارق لعادة البشر ومقاييسهم، وهو حملها وولادتها من غير مس ذكر، وبما سيخص الله تعالى به ولدها من الفضائل، ويكلفه ويشرفه به من النبوة، ويؤيده به من المعجزات؛ وقعت -إلى جانب ما نالها من التكريم والتعظيم والتفضيل والاختصاص- في ابتلاء شديد ومحنة كبرى، وبلغ منها العجب غايته والاستبعاد نهايته -وهذه طبيعة البشر-؛ وقالت لجبريل -عليه السلام- الذي تمثل لها بشرا سويا ما قصه القرآن الكريم: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم: ٢٠].

نطقت بشجاعة الأنثى العفيفة التقية النقية الطاهرة، المهددة في عرضها وشرفها؛ فضلا عن دينها! فسألت في تعجب شديد وصراحة بالغة: كيف يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك يوما ما بغيا[1]؟!!، فلا أنا متزوجة ولا أنا من أهل البغاء، وقد تعارف البشر على أن الإنجاب لا يكون إلا من زوجين، ذكر وأنثى!! وكأنها نسيت من هول الموقف طمأنة جبريل -عليه السلام- إياها بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم: ١٩].

لكن عزةَ الحياءِ وفورة الشرفِ وشدة التقوى تأبى هذه كلها إلا الصراحة هاهنا، ولو كانت من عذراء لم يمسسها بشر ولم تك يوما ما بغيا.

وهنا تتلقفها العناية الإلهية، ويأتيها التطمين والتثبيت من الله عز وجل على لسان جبريل -عليه السلام-: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم: ٢١].

فسلمت -رضي الله عنها- لقضاء الله تعالى وقدره، ورضيت به إيما رضا، ونفخ الله عز وجل فيها من روحه؛ فحملت بالولد بإذنه تعالى، وكانت من القانتين؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ

(١) الْبَغِيُّ: هي الفاجرة. والبِغَاء: الزنا، [غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)]

مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢].

ويطوي القرآن الكريم صفحات من قصتها -رضي الله عنها- أثناء حملها المبارك، وينتقل بنا إلى الحدث الأكبر والأخطر في القصة على الإطلاق، وهو حدث الولادة، ومواجهة المجتمع.

فلئن كانت -رضي الله عنها- تواجه فيما مضى طهرها ونقاءها وعفتها وصفاءها، بينها وبين نفسها، فهي الآن توشك أن تواجه المجتمع بأسره، بأمر يعده المجتمع النقي على رأس الفضائح والفواحش.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [مريم: ٢٢].

قال الطبري: "وفي هذا الكلام متروك، تُرِك ذكره استغناء عنه بدلالة ما ذُكر، والتقدير: فنفخنا فيها من روحنا بغلام ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[(١)]".

والمعنى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ في بطنها، ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾: أي: فتنحَّت به مَكاناً بعيدا؛ حياء وفرارا على وجهها[(٢)].

قال القشيري: «لـمَّا ظهر بها الحمل، وعلمت أنّ الناس يستبعدون ذلك، ولم تثق بأحد تفشى إليه سرّها.. مضت إلى مكان بعيد عن الخلق»[(٣)].

ثم تأتي الآية التالية لتحكي المشهد الأقسى والأصعب في قصتها -رضي الله عنها- على الإطلاق. يقول الله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣]. ومعنى ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾: أي فألجأها واضطرها وجع الولادة، وهو الطلق؛ ألجأها إلى الاعتماد إلى جذع النخلة[(٤)].

قال الزمخشري: طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل (إلى النخلة)؛ لأنها لم يبق منها إلا الجذع، والتعريف في لفظ (النخلة) لا يخلو: إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة معروف عند الناس، فإذا قيل: (جذع النخلة) فُهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل. وإمّا أن يكون تعريف الجنس، أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خُرْسَة النفساء[(٥)] الموافقة لها»[(٦)].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٦٦).

(٢) الكشاف (٣/ ١١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠)، والبحر المحيط (٧/ ٢٥٠)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ٣١٤).

(٣) لطائف الإشارات (٢/ ٤٢٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٢٤)، والتفسير البسيط (١٤/ ٢١٩)، ولطائف الإشارات (٢/ ٤٢٤).

(٥) الخُرْسَة: مَا تَطْعَمُه المرأَةُ عِنْدَ وِلادِها. وخَرَّسْتُ النُّفَسَاءَ: أَطعمتها الخُرْسَة أي: طعامها الذي يصنع لها [لسان العرب: (٦/ ٦٣) مادة خرس].

(٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ١١).

ويا له من موقف عصيب، تخار فيه كل قوة، وتتصاغر فيه كل شجاعة، وتذهب فيه كل سكينة، آلام جسدية، وآلام نفسية، وفكرٌ لا يتوقف؛ فتجأر بالبكاء والنحيب، وهي وحيدة فريدة بعيدة.

** ويشتد حزنها وألمها، ويعلو نحيبها وبكاؤها؛ وتفجعها وإشفاقها، لا تضجرا وسخطا، وإنما حزنا وتفجعا وإشفاقا؛ فتنادي باكيةً نفسَها وناعيةً حالها؛ بلسان الضعيفة المسكينة المنكسرة، التي عجزت عن كل شيء؛ ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣].

لما اشتد بها الأمر هنالك، وازدادت آلامها الجسدية والنفسية، وخارت قواها، واحتضنت الجذع لشدة ما بها من الآلام، وولدت عيسى -عليه السلام- جأرت مناديةً نفسها ناعيةً إياها.

وقد تضمن نداؤها هذا بعض الدقائق والهدايات:

أولا: نلاحظ في ندائها هذا شدة الحزن، وفرط الحياء، ولوعة الإشفاق، وقد صُوِّر ذلك بأسلوبين: أسلوب النداء مع أسلوب التمني. أسلوب النداء بما يوحيه من التفجع، وما يحمله من التنبيه والإيقاظ، وأسلوب التمني بما يوحيه من الرغبة الشديدة في حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده[1].

والأسلوبان معا بما يوحيانه في هذا السياق من شدة الحزن والغم وفرط الحياء والإشفاق.

وذلك ظاهر من خلال مناداتها نفسها متمنية أمرين في غاية الاستحالة؛ إعلاما بما وصل إليه حالها من الهم والحزن.

أما الأمر الأول: فهو مناداتها نفسها متمنية الموت قائلة: ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي: يا ليتني مت قبل هذا الحمل، ولم يجر عليَّ هذا القدر.

والمشار إليه في قولها ﴿ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ هو الحمل؛ أرادت أن لا يتطرق عرضها بطعن ولا تجر على أهلها معرة، ولم تتمن أن تكون ماتت بعد بدو الحمل؛ لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن في عرضها بعد موتها ولا المعرة على أهلها؛ إذ يشاهد أهلها بطنها بحملها وهي ميتة فتطرقها القالة[2].

وأما الأمر الثاني: فهو تمنيها أن لو كانت شيئا محتقرا لم يؤبه له؛ حيث قالت: ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: وكنت شيئا متروكا محتقرا، و«النسي»[3] في كلام العرب: الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنسى، فلا يعبأ بفقده، ولا يُلتفت إليه.

وقالت: (نَسْيًا مَنْسِيًا) فوصفت «النسي» بـ «منسي» مبالغة في تمنيها الموت قبل أن تحمل، ونسيان ذكرها وانقطاعه بين الناس، كأنها نادت نفسها: يا ليتني كنت شيئا تافها متروكا لا يؤبه له، ولم يلتفت إليه أحد مطلقا.

---

(١) التمني طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده، والحرف الموضوع له «ليت» كما في قوله سبحانه: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣]، [من بلاغة القرآن لأحمد البيلي البدوي (ص: ١٢٩)]

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٥، ٨٦).

(٣) لسان العرب (١٥/ ٣٢٣)، مادة (نسي).

قال الزمخشري رحمه الله: "تمنت لو كانت شيئا تافها لا يؤبه له، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء من الناس بحكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله عز وجل، أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها؛ لأنها عارفة ببراءة ساحتها، واختصاص الله تعالى إياها بغاية الإجلال والإكرام. لكنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام، حين تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبا يعاب به ويعنف بسببه!!، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، إذا تكلموا في شأنها"[1].

والظاهر أن حزنها كان على الأمرين معا، على نفسها حياء من الناس بحكم العادة البشرية، وعلى الناس خوفا من أن يعصوا الله تعالى بسبب خوضهم في عرضها.

قال الآلوسي: "ومن ظن أن تمنى مريم -رضي الله عنها- الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن"[2].

فجملة ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ استئناف بياني، لأن السامع يتشوف إلى معرفة حالها عند إبان وضع حملها بعد ما كان أمرها مستترا غير مكشوف بين الناس، وقد آن له أن ينكشف، فيجاب السامع: بأنها تمنت الموت قبل ذلك، فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها. وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى فلذلك كانت في مقام الصديقية[3].

ثانيا: تعاضد مع ذلك كله في إظهار شدة حزنها وحيائها وإشفاقها: مجيء قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ بدون حرف الجر (من)؛ إسراعا في إعلان حالها من الحزن والهم والغم والحياء.

النداء السادس

نداء التطمين والتثبيت

نداء ولدها إياها: في قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦].

أولا: سياق النداء: بعد أن قصَّت الآيات السابقة ما كان من هول الموقف وفداحة الحدث على مريم -رضي الله عنها- حين ألجأتها أوجاع الوضع إلى

(١) الكشاف (٣/ ١٢) بتصرف يسير. ويراجع: التفسير البسيط (١٤/ ٢٢١)، ولطائف الإشارات (٢/ ٤٢٤، ٤٢٥)، وروح المعاني (٨/ ٤٠٠).

(٢) روح المعاني (٨/ ٤٠٠) بتصرف واختصار. ويراجع: التفسير البسيط (١٤/ ٢٢١)، ولطائف الإشارات (٢/ ٤٢٤، ٤٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٥).

جذع النخلة، وهي ضعيفة غريبة، لا أهل معها ولا أحباب، لتقاسي وحدها آلام الوضع مع آلام النفس التي لا تنتهي، وما تبعه من شدة حزنها وحيرتها، وفرط حيائها وعفتها؛ إشفاقا على نفسها مما عسى القوم أن يعتقدوه فيها، وإشفاقا عليهم أن يرتكبوا معصية الله إن خاضوا في عرضها، وهي التقية المصونة العارفة بربها، المكَرَّمة منه عز وجل؛ وما نتج عن ذلك من شدة زفراتها التي نادت بها ناعية نفسها، متمنية أن تكون قد ماتت وكانت شيئا لا يؤبه له قبل أن يحدث لها هذا الحمل!!.

بعد ذلك قصَّت علينا الآيات الكريمات ما كان من فضل الله تعالى وإنعامه عليها في هذا الموقف الرهيب العصيب؛ لقد تلقفتها العناية الإلهية، وجاءها التطمين والتثبيت، والمفاجأة الكبرى أنه جاءها من وليدها المبارك الذي لم يبرح موضعه لحظة الولادة، والذي كان السبب في كل ما جرى لها؛ مناديا إياها تطمينا وتثبيتا: ألا تحزن وألا تخاف؛ لأنها مكفولة بعناية الله تعالى وكرمه وفضله، محروسة بعينه التي لا تنام. ... الخ ما تضمنته الآيات الكريمات.

ثانيا: التفسير والبيان: قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤].

تبين هذه الآية الكريمة والآيات بعدها ما كان من تحقق البشارة العظيمة التي بُشرت بها مريم -رضي الله عنها- في شأن حملها على لسان جبريل -عليه السلام- في قول الله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]

فتذكر ما كان من فضل الله تعالى عليها حين خرق لها العادة في مولودها فكلمها مشافهة لحظة ولادته خرقا لعادات البشر؛ إرهاصا بنبوته وكرامة لها، مناديا إياها بما طمئنها وثبتها ورفع عنها الهم والغم والحزن.

تنبيه: لا يخفى أن هذا النداء ههنا مقدر؛ إذ التقدير: (فناداها جبريل من دونها، أو من بين يديها: يا مريم) على مذهب القائلين بأن المنادي هو جبريل، أو (فناداها ابنها عيسى من تحتها: يا أماه)؛ على ما سيتضح بيانه.

وقد تضمن هذا النداء وجوها من الدقائق والهدايات:

حيث تضمن تعظيمها وتبجيلها وتكريمها رضي الله عنها:

أولا: قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾:

وقد اختلف في المنادِي ههنا على قولين؛ الأول: أنه جبريل عليه السلام، والثاني: أنه مولودها عيسى عليه السلام؛ وذلك بناء على القراءات المتواترة الواردة في لفظ (من) ههنا.

والمهم: أن تعظيم مريم -رضي الله عنها- وتبجيلها وارد على الوجهين، وإن كان الثاني هو الأرجح عند المحققين، كما سنرى.

حيث ورد في لفظ (من) قراءتان متواترتان[1]:

(١) اختلف القراء في: (من تحتها) فقرأ المدنيان، وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وحفص وروح: بكسر الميم من (من) وخفض التاء من (تحتها)، وقرأ الباقون بفتح الميم من (من)، ونصب التاء من (تحتها). [النشر في القراءات العشر

أما القراءة الأولى: فبكسر الميم في لفظ (مِنْ) على أنه حرف جر، وخفض تاء (تَحْتِها)، على أنه مجرور بحرف الجر، والفاعل (المنادِي) محذوف.

وبناء على ذلك اختلف في المنادِي؛ فقيل: المنادِي هو جبريل -عليه السلام-، وقوله (مِن تحتِها) لا يراد به الجهة المحاذية للتمكن من تحت، ولكن المعنى: فناداها جبريل من دونها، أو من بين يديها، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]، ولم يكن الجدول محاذيا لهذه الجهة، ولكن المعنى: جعله دونك، وقد يقال: فلان تحتنا، أي: دوننا في الموضع[١].

وهو قول بعض السلف؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ناداها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت قومها[٢].

قلت: وفي هذا الوجه من التكريم والتبجيل لمريم رضي الله عنها ما فيه.

وقيل: المنادِي هو ولدها عيسى -عليه السلام-، وهو الأرجح[٣]:

أولا: لأنه أقرب مذكور، ألا ترى أنه وارد في سياق قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢]، ثم قيل: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ نسقا على ذلك، ورجوع الضمير إلى الذي هو أقرب إليه أولى من رجوعه إلى الذي هو أبعد منه.

ثانيا: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]؛ حيث إنها لم تُشِر إليه إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك؛ مما عرفته من نطقه لحظة ولادته.

ثالثا: لأنه الأبلغ في تطمين قلبها وتثبيتها، وإزالة وحشتها وهمّها واغتمامها؛ إذ إنه أمر خارق للعادة، كما أن ولدها عيسى هو سبب حالها هذه وأساسها.

قلت: وبناء على ذلك تظهر بلاغة هذا الوجه أيضا، وما فيه من التكريم والتعظيم والعناية البالغة من الله تعالى بمريم رضي الله عنها.

ومما يعضد تلك العناية وذلك الإكرام: «التعبير بقوله ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾: لبيان أنه ناداها مباشرة عند وضعه قبل أن ترفعه؛ مبادرة إلى تطمينها وبشارتها بما يسر قلبها ويثلج صدرها، ويذهب عنها الهم والحزن»[٤].

وأما القراءة الثانية: فبفتح الميم في لفظ (مَنْ) على أنه اسم موصول، فاعل (نادى) وبفتح التاء في (تَحْتَها)، على الظرفية، والمنادِي هو ولدها عيسى

(٢/ ٣١٨)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٣٧٧)]

(١) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٥/ ١٩٧)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص: ٤٤١)

(٢) جامع البيان للطبري (١٨/ ١٧٣)، وهو مروي عن ابن عباس الضحاك رضي الله عنهم.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٥/ ١٩٧)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص: ٤٤١)، وجامع البيان للطبري (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، والتفسير البسيط للواحدي (١٤/ ٢٢٥)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢)، والتفسير الكبير (٢١/ ٥٢٧)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٢٥٣)، ونظم الدرر للبقاعي (١٢/ ١٨٨)، والتحرير والتنوير (١٦/ ٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٧)، بتصرف.

-عليه السلام-[١]، وهو قول بعض السلف، رُوِيَ عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: الَّذِي خاطبها هُوَ الَّذِي حَملته فِي جوفها[٢].

والمعنى عليها لا يحتمل إلى وجها واحدا وهو أن يكون المنادي ولدها عيسى عليه السلام، والمعنى: فناداها الذي هو تحتها، أي مولودها عيسى عليه السلام.

وبناء عليه: فإن الراجح في المنادِي على القراءتين هو عيسى -عليه السلام- وذلك ألصق بالسياق، وأبلغ في هذا المقام؛ ليذهب همها وينزاح عنها حزنها.

«وهذا الأمر الخارق للعادة من باب الإرهاص لعيسى -عليه السلام-، ومن باب الكرامة لأمه مريم رضي الله عنها»[٣].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾:

أي: فناداها ولدها عيسى -عليه السلام- لحظة ولادته: ألا تحزني يا أماه لولادتي.

«وجملة ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾، أي: إن حالتك حالة جديرة بالمسرة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهية»[٤].

والتعبير بلفظ الرب: إشارة إلى عناية الله تعالى ورعايته لها، أي: فإن ربك الذي تولاك ورعاك أولا سيتولاك ويرعاك آخرا.

وقد اختلف في المراد بالسَّرِيّ: فقيل: المراد به الجدول الصغير من الماء؛ سمي بذلك لأن الماء يسري فيه[٥]؛ بقرينة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي ﴾ فهو قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾.

والمعنى: قد جعل ربك تحت قدميك جدولا صغيرا من الماء، لتأخذي منه ما أنت في حاجة إليه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين.

وفي ذلك من العناية الإلهية والتكريم لمريم رضي الله عنها ما فيه.

وقيل: المراد بالسَّرِيّ هنا عيسى -عليه السلام-، والسَّرِيّ: الشريف العظيم من الرجال، ومنه قولهم: فلان سَرِيٌّ، أي: عظيم، ومن قوم سراة، أي: عظام[٦].

والمعنى: قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر عظيم الشأن نبيل الخصال، وهو ابنك عيسى. وفي ذلك من البشارة العظيمة التي تطمئن قلبها وتشرح صدرها وتذهب عنها الحزن ما فيه.

---

(١) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٥/ ١٩٧)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص: ٤٤١)، وجامع البيان للطبري (١٨/ ١٧٤).

(٢) جامع البيان للطبري (١٨/ ١٧٤) وهو قول مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، وابن زيد رضي الله عنهم.

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٧) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٧).

(٥) لسان العرب (١٤/ ٣٨٠)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٤٠٩)، مادة (سرو).

(٦) لسان العرب (١٤/ ٣٨٠)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٤٠٩) مادة (سرو).

ثالثا: قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥].

معطوف على ما قبله، فهو من جملة ما تكلَّم به عيسى -عليه السلام- في المهد في ندائه لأمه؛ تطمينا وتثبيتا لقلبها، وإزالة لما أصابها من الهم والحزن، وتبشيرا لها بما خصها الله تعالى به هي ومولودها المبارك من الفضائل العظام.

والهَزُّ معناه: التحريك، يقال: هَزَّه يَهُزُّه هَزّاً وهَزَّ بِهِ وهَزَّزَهُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: هَزَّه وهَزَّ بِهِ إذا حَرَّكَهُ[١].

ومعنى ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾: وحركي واجذبي جذع النخلة جهتك، «وضُمِّن (وهُزِّي) معنى (قَرِّبي) أو (أَدْنِي)، فعُدِّيَ بـ (إلى)، أي: حَرِّكي جذع النخلة وقربيه يَدْنُ إليك ويَلِنْ بعد أن كان يابسا، ويُسْقِط عليك رطبا جنيا»[٢].

رابعا: قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾:

﴿رُطَبًا﴾: أي تمرا ناضجا لم يتم جفافه[٣]، و﴿جَنِيًّا﴾: أي غضا طريا[٤]، والجَنِيّ: فعيل بمعنى مفعول، أي مجتنى، وهو كناية عن حدثان سقوطه. ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل؛ لأن الرطب متى كان أقرب عهدا بنخلته كان أطيب طعما[٥].

وتلك كرامة أخرى لها، منحها الله تعالى إياها؛ لترى بعيني بصرها وبصيرتها كيف أثمر الجذع اليابس رطبا جنيا!!؛ لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع، فالذي قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى- عليه السلام- من غير أب؛ فلْتطمئن وليهدأ روعها.

خامسا: قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾:

معطوف أيضا على سابقه، وهو من تتمة نداء عيسى -عليه السلام- لأمه -رضي الله عنها-؛ وفيه تأنيس لها، وتثبيت لقلبها بأنها ما زالت محفوفة بعناية الله تعالى وفضله.

﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾: قال أهل اللغة: أَقَرَّ الله عينَك: سكَّن الله عينَك بالنظر إلى ما تحب، أي: صادفتَ ما يرضيك فَتَقَرّ عينك من النظر إلى غيره، ويقال: فلان قُرَّة عيني، ومعناه رضي نفسي، أي: ترضى نفسي وتَقر وتسكن بقربه مني ونظري إليه، ويقال: أقر الله عينه أنام الله عينه، والمعنى صادف سرورًا يذهب سهره فينام[٦].

والمعنى: فكلي من ذلك الرُّطَب، واشربي من ذلك الجدول الجاري، وطيبي نفسا بوجودي معك، واطردي عنك الهموم والأحزان. أو وطيبي نفسا بما آتاك الله تعالى من الفضل وخصك به من الكرامة.

سادسا: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا

(١) لسان العرب (٥/ ٤٢٣)، مادة (هزز).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٨).
(٣) لسان العرب (١/ ٤٢٠)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٣٥٦) مادة (رطب)..
(٤) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٠٧، ٢٠٨) مادة (جنى).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٨).
(٦) تهذيب اللغة للهروي (٨/ ٢٢٥)، ومقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٧)، ولسان العرب (٥/ ٨٦)، والمفردات في غريب القرآن (ص٦٦٣)، مادة (قر).

﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦].

معطوف أيضا على سابقه، وهو من تتمة نداء عيسى -عليه السلام- أيضا لأمه -رضي الله عنها-؛ وفيه تأنيس لها، وتثبيت لقلبها بأنها محفوفة بعناية الله تعالى وفضله، وفيه توجيه لها بما تفعله إن سألها أحد عن مولودها.

والمعنى: أن عيسى- عليه السلام- قال لأمه: لا تحزني يا أماه بسبب وجودي بدون أب، وطيبي نفسا بذلك، ومهما رأيت أحدا من البشر، كائنا من كان، فسألك عن أمرى وشأني فقولي له: إني نذرت للرحمن صمتاً وإمساكاً عن الكلام، فلن أكلم اليوم آدميا. قال المفسرون: أُمرت أن تنذر الصوم سكوتا؛ لأن عيسى -عليه السلام- سيكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها، ويرفع عنها كل حرج[1].

وبهذا التطمين والتثبيت انتهى نداء عيسى لأمه في هذا المشهد العصيب، وما أعظمه من تطمين وما أقواه من تثبيت!!؛ لأنه رفع عنها الحرج والهم والحزن جملة وتفصيلا، كأنه يقول لها: لا عليك يا أماه، لا تتعبي نفسك، ولا ترهقي عقلك في التفكير عن جواب ينزه ساحتك، فإن الله تعالى كافيك إياه، أعلميهم فقط أنك صائمة عن الكلام، واتركي لي الأمر بحول الله تعالى وقوته، لتظهر المعجزة أمامهم، ويعلم الجميع أن ساحتك طاهرة، وأن مقامك طاهر، وأنك مخصوصة بمزيد من الفضل والإكرام.

النداء السابع

نداء التعجب والإنكار

نداء قومها إياها: في قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم: ٢٧].

أولا: سياق النداء: بعد أن قصَّت الآيات السابقة ما كان من فضل الله تعالى وإنعامه على مريم -رضي الله عنها- في أحد أصعب وأعجب مواقف الحياة كلها، وبيَّنت ما كان من عناية الله تعالى بها وإكرامه عز وجل لها، وجاءها التثبيت من وليدها المبارك لحظة ولادته؛ خرقا لعادات البشر؛ حيث ناداها ألا تحزن، وبأن الله تعالى قد تولاها في مطعمها ومشربها، وخرق لها العادة إكراما وتعظيما، ووجهها بأن تنذر لله تعالى الصوم عن كلام البشر؛ ليُرفع عنها بذلك هَمُّ لقاء القوم بهذا الأمر الذي لا يُصَدَّق إلا بمعجزة إلهية؛ ليكون هو المتكلم عنها وعن طهرها ونقائها وعفتها، وهو لا يزال في مهده!!؛ فاطمئن بهذا قلبُها وهدأ روعُها، وذهب حزنُها وهمُّها، وغمُّها.

وأتت به قومها تحمله مطمئنة ثابتة... ليبدأ مشهد جديد من مشاهد قصتها تلخصه الآيات الآتية...

ثانيا: التفسير والبيان: قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم: ٢٧].

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٢)، ولطائف الإشارات (٢/ ٤٢٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣)، ونظم الدرر (١٢/ ١٩١)، ومدارك التنزيل (٢/ ٣٣٣)، وتفسير أبي السعود (٥/ ٢٦٣)، وتفسير ابن كثير (٥/ ١٩٩)..

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا إيجاز بالحذف، يقتضيه سياق القصة، والتقدير: وبعد أن استمعت مريم -رضي الله عنها- إلى ما قاله لها ابنها عيسى- عليه السلام- وشاهدت وعاينت خوارق العادات لها ولوليدها اطمأن قلبها، وذهب حزنها وهمها، وقرت عينها، وأيقنت أنه مدافع عنها مُثْبِتٌ للناس طهرها وعفافها؛ بعد ذلك مباشرة أتت به قومها تحمله معها من المكان القصي الذي اعتزلت فيه قومها، غير مبالية بأحد ولا مستخفية، وإنما واثقة من تأييد الله تعالى لها.

وقد جاء التعبير بالفاء ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ ﴾ لإفادة الترتيب والتعقيب؛ أي أنها أتت به قومها مباشرة بعد اطمئنانها وذهاب حزنها بما شاهدته من الخوارق، التي أكرمها الله تعالى بها.

وجيء بقيد ﴿ تَحْمِلُهُۥ ﴾؛ لتأكيد مجيئها به بعد الولادة وهو لا يزال في المهد؛ لئلا يظن أنها جاءت به بعد فترة وهو يمشي مثلا.

فما كان من قومها -وكانوا قوما صالحين- إلا أن صاحوا فيها منادين إياها، متعجبين منكرين، بما حكاه الله تعالى في قوله:

﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾:

والفَرِيُّ: الأمر العظيم العجيب[1]، والمعنى: فلما رأوا مريم، ورأوا معها الولد الذي ولدته، قالوا لها: يا مريم لقد جئت بأمر عجيب، وأحدثت حدثا عظيما، يقال: فلانٌ يَفْرِي الفَرِيَّ إذا كان يعمل عملا يبالغ فيه[2].

ومرادهم من ذلك: أنها أتت بولدها من طريق غير شرعي، وهو ما جاء مبينا في قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء: ١٥٦]، ويدل على أن مرادهم هذا، قولهم بعد ذلك: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾[مريم: ٢٨].

ونلاحظ في هذا النداء بعض الدقائق والهدايات: حيث إن قومها مع شدة إنكارهم لما جاءتهم به إلا أنهم قد أبانوا في ندائهم عن تعظيمهم لها وتوقيرهم إياها، ونلمس ذلك في الآتي:

أولا: أنهم نادوها ﴿ يَٰمَرْيَمُ ﴾، وكان من الممكن أن يخاطبوها بأسلوب غير أسلوب النداء؛ هكذا: (قالوا لقد جئت شيئا فريا)، لكنهم نادوها، ولعل السر في ذلك: هو ما يتضمنه أسلوب النداء من التنبيه والإيقاظ لقلبها وعقلها ونفسها وكل جوارحها؛ لتجيب عن هذا الأمر الخطير، إضافة إلى ما يشي به النداء من معني التعجب والإنكار؛ حسب ما يفيده السياق.

ثانيا: أنهم نادوها بأداة النداء للبعيد (يا)، مع أنها كانت أمامَهم؛ فقد أتت إليهم فعلا، ولا يخفى ما في استعمال أداة النداء للبعيد من الإشارة إلى علو مكانتها ومنزلتها في قلوبهم.

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ١٦٦)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٢٧)، وجامع البيان للطبري (١٨/ ١٨٥) وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٠٠).

ثالثا: أنهم صرحوا باسمها العلم (مريم) وكان من الممكن أن ينكروا عليها ذلك دون أن يصرحوا باسمها، هكذا: (قالوا لقد جئت شيئا فريا)؛ خاصة أنها أتتهم بأمر -من حيث الظاهر- تندى له الجباه، لكنهم نادوها مصرحين باسمها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾، ولكأنهم قالوا: يا أيتها المعروفة بالطاعة والتقى!!

رابعا: أنهم مع شدة إنكارهم لم يستطيعوا في هذا الموقف أن يتهموها بالزنا مباشرة، بل عرَّضوا به فقط؛ حيث قالوا: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾، ولم يقولوا: (لقد زنيتِ)؛ وذلك لأمور: منها أنه لا توجد لديهم بينة على ذلك، ومنها: مكانتها العظيمة المعروفة عندهم، فهي العابدة التقية العارفة بربها، وأول امرأة يقبلها الله تعالى في نذر للعبادة في بيت المقدس، وهم أعرف الناس بذلك.

لذلك قالوا في تعجب وإنكار يغلفه الاعتراف بفضلها ومكانتها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾، والفَرِيُّ -كما سبق بيانه- يقال على الأمر العجيب العظيم، لا الأمر البذيء القبيح.

النداء الثامن

نداء التعجب والتحسر والثناء

نداء قومها إياها: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٨].

أولا: سياق النداء: هذا هو نداء قومها الثاني لها في هذا الموقف الرهيب العصيب، فبعد أن نادوها متعجبين منكرين مجيئها بهذا الأمر العظيم العجيب، وتضمن نداؤهم ما يدل على مكانتها عندهم وتقديرهم لها، واعترافهم بفضلها، بعد ذلك نادوها نداء يندبون فيه حالها، وينعون تاريخها، ويتحسرون عليه، ويعترفون - من طَرْفٍ خفي- بطهرها وعفافها، ويقرون بمنزلتها وفضلها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٨].

ثانيا: التفسير والبيان: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: اختلف المفسرون[1] في المراد بـ (هارون) هنا على أقوال أهمها ثلاثة:

الأول: وهو الأرجح؛ أنه رجل صالح كان من بني إسرائيل، شبَّهوها به في الصلاح والتقى، ودليله: ما ورد في السنة النبوية، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»[2].

---

(١) يراجع: جامع البيان (١٨/ ١٨٦، ١٨٧)، والنكت والعيون (٣/ ٣٦٨، ٣٦٩)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣)، والكشاف (٣/ ١٤)، وزاد المسير (٣/ ١٢٩)، والتفسير الكبير (٢١/ ٥٣٠)، ومدارك التنزيل (٢/ ٣٣٣)، ونظم الدرر (١٢/ ١٩٢)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٠١)، وتفسير أبي السعود (٥/ ٢٦٣)، وفتح القدير (٣/ ٣٩١)، والتحرير والتنوير (١٦/ ٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الآداب، باب: النهي

والثاني: أنها كانت من بني هارون أخي موسى عليهما السلام، فنُسبت إليه، لأنها من ولده. وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر.

والثالث: أنه أخ لها، وكان أفضل فتى في بني إسرائيل، فنسبوها إليه في الزهد والعبادة.

وسواء كان هذا أو ذاك فالسياق يدل على أنهم نسبوها في عبادتها وتقواها وزهدها وورعها إلى هارون هذا، والمعنى: يا أخت هارون في الصلاح والتقوى ... كيف صدر منك أنت هذا؟!!!. نادوها متعجبين متحسرين، نادبين إياها، ناعين حالها!!

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ معناه[1]:

ما كان ﴿أَبُوكِ﴾ أي: عمران، ساعة من الدهر ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾، أي: يأتي الفواحش؛ لنقول: نزعك عرق منه، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾: في وقت من الأوقات ﴿بَغِيًّا﴾ أي زانية، وسميت الزانية بغياً؛ لأنها تبغي الزنا، أي تطلبه، أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهد، ولم يكن أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة؛ فمن أين لك هذا الولد؟!!

ونلاحظ في ندائهم هذا بعض اللطائف والدقائق:

لقد جاءت مريم -رضي الله عنها- قومها بأمر عظيم، يستحيل أن يصدر بحكم العادة من أمثالها في الشرف والصلاح والتقى؛ فهي العابدة الورعة التقية، سليلة البيت الطاهر، الذي اصطفاه الله تعالى، بيت آل عمران؛ قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤] فهي مصطفاة من قوم مصطفين، ثم تأتي بهذا الأمر الذي يذل الأنوف، وتندى له الجباه؛ عارا وشنارا؟!!!

إذا وضعنا في الاعتبار كل هذا، أدركنا كيف كان وَقْعُ هذا الحدث، -بل المصيبة كما رأوها هم أول الأمر- في نفوسهم وقلوبهم!!!

ومع ذلك نلاحظ في ندائهم هذا الذي فاض تعجبا وتحسرا: مراعاتهم لمكانتها ومنزلتها في قلوبهم، بل ثناءهم عليها من طرف خفي؛ حيث:

أولا: نادوها، وبأداة النداء للبعيد، على ما سبق بيانه، وكان يمكنهم مخاطبتها بغير أسلوب النداء، هجرا وتعنيفا، على الأقل في الخطاب.

لكنهم احتفظوا لها بمنزلتها في قلوبهم، حين نادوها وبأداة النداء للبعيد اعترافا بمنزلتها العالية، رغم فداحة الموقف وصعوبة الحدث.

وثانيا: أنهم نسبوها إلى (هارون) النبي عليه السلام، أو (هارون) العابد الصالح التقي؛ اعترافا بما لديها في نفوسهم من رصيد العبادة والشرف.

عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء: (٣/ ١٦٨٥) ح(٢١٣٥).

(١) يراجع: جامع البيان (١٨/ ١٨٨)، والنكت والعيون (٣/ ٣٦٩)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٤)، والكشاف (٣/ ١٤)، وزاد المسير (٣/ ١٢٩)، والتفسير الكبير (٢١/ ٥٣٠)، ومدارك التنزيل (٢/ ٣٣٣)، ونظم الدرر (١٢/ ١٩٢)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٠١)، وتفسير أبي السعود (٥/ ٢٦٣)، وفتح القدير (٣/ ٣٩٢).

وثالثا: أنهم زادوا في اعترافهم بصلاحها وطهرها وعفافها حين نفوا عن أبويها فعل الفاحشة، فهي سليلة بيت طاهر لا يعرف المعاصي.

كأنهم يطرحون عليها السؤال الذي يفرضه العقل: فمن أين لك هذا الولد، وأنت بهذا الصلاح والتقى والنبل والشرف؟!!!

وهنا يظهر الحق، وتتحقق المعجزة، وتنجلي الكرامة، ويتولى الدفاع عنها غلامها حديث الولادة الذي تحمله في مهده، فيتكلم ويجيب عنها؛ خرقا لعادات البشر، ويبرئ ساحتها، ويثبت طهرها وعفافها، ونقاءها وصفاءها، وأنها مختارة مجتباة من نساء العالمين؛ لتكون وعاء لهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣]. ولشرح هذه الآيات الكريمات مقام آخر، غير هذا البحث.

* * *

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد؛ فقد انتهيت بحمد الله تعالى وتوفيقه من هذا البحث: (نداء الصِّدِّيقة مريم في القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية) وتوصلت إلى جملة من النتائج والتوصيات.

أما النتائج فمن أهمها:

أولا: لقد أبان القرآن الكريم عن المكانة العالية والمنزلة السامية لمريم رضي الله عنها.

ثانيا: أن الراجح عند جمهور العلماء أن مريم -رضي الله عنها- ليست نبية، وإنما هي عابدة صالحة تقية؛ اختصها الله تعالى بمزيد من الفضل والإكرام والإنعام، فاصطفاها على نساء عصرها في الصلاح والتقى، وطهّرها من كل ما يَصِمُ النساء في خَلْقٍ أو خُلُقٍ أو دِينٍ ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد، والطبع السليم، ومن افتراء اليهود وكذبهم، واصطفاها على نساء العالمين إلى يوم الدين لولادة عيسى -عليه السلام- من غير أب.

ثالثا: ورد نداء مريم -رضي الله عنها- في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، حيث:

- ناداها نبي الله زكريا -عليه السلام- تعجبا من حالها.

- وناداها جبريل -عليه السلام- ثلاث نداءات:

نداء التطهير والاصطفاء، ونداء التأنيس، والتنويه بشأنها، ونداء البشارة الكبرى بعيسى عليه السلام، وما خصه الله به.

- ونادت هي نفسها نداء الحياء والحزن والإشفاق.

- وناداها ولدها فور ولادته نداء التطمين والتثبيت.

- وناداها قومها نداءين: نداء التعجب والإنكار، ونداء التعجب والتحسر والثناء.

رابعا: تضمن نداء مريم في كل موضع كثيرا من الدقائق واللطائف والهدايات، التي ذكرت في مواطنها من البحث، والتي تدل على كمال مريم رضي الله عنها، وفضلها، وتعظيمها، وتبجيلها.

ويكفي أن ندلل على ذلك بما تضمنه نداء قومها إياها من الاعتراف بمنزلتها وفضلها؛ رغم شدة إنكارهم لما جاءتهم به؛ حيث أبانوا في ندائهم عن تعظيمهم لها وتوقيرهم إياها، ولو من طَرْف خفيّ؛ بدليل:

١- أنهم نادوها بأداة النداء للبعيد (يا)، مع أنها كانت أمامَهم؛ فقد أتت إليهم تحمل مولودها، ولا يخفى ما في استعمال أسلوب النداء وأداته التي للبعيد من الإشارة إلى علو مكانتها ومنزلتها في قلوبهم.

٢- أنهم صرحوا باسمها العلم (مريم) وكان من الممكن أن ينكروا عليها ذلك دون أن يصرحوا باسمها تعنيفا لها، هكذا: (قالوا لقد جئت شيئا فريا)؛ خاصة أنها جاءتهم بأمر -من حيث الظاهر- تندى له الجباه، لكنهم نادوها مصرحين باسمها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾، ولكأنهم قالوا: يا أيتها المعروفة بالطاعة والتقى!!

٣- أنهم مع شدة إنكارهم لم يستطيعوا في هذا الموقف أن يتهموها بالزنا مباشرة، بل عرَّضوا به فقط؛ حيث قالوا: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾، ولم يقولوا: (لقد زنيتِ)؛ وذلك لأمور: منها أنه لا توجد لديهم بينة على ذلك، ومنها: مكانتها العظيمة المعروفة عندهم، فهي العابدة التقية العارفة بربها، وأول امرأة يقبلها الله تعالى في نذر للعبادة في بيت المقدس، والتي ظهر عليها من الكرامات ما لا ينكر، وهم أعرف الناس بذلك. لذلك قالوا في تعجب وإنكار يغلفه الاعتراف بفضلها ومكانتها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾، والفَرِيُّ -كما سبق بيانه- يقال على الأمر العجيب العظيم، ولا يقال على الأمر البذيء القبيح.

٤- أنهم في ندائهم الثاني نسبوها إلى (هارون) النبي عليه السلام، أو (هارون) العابد الصالح التقي؛ اعترافا بما لديها في نفوسهم من رصيد العبادة والصلاح والشرف.

٥- أنهم زادوا في اعترافهم بصلاحها وطهرها وعفافها حين نفوا عن أبويها فعل الفاحشة، فهي سليلة بيت طاهر لا يعرف المعاصي.

إلى آخر ما تضمنه نداؤها -رضي الله عنها- في كل مقام من الدقائق واللطائف والهدايات، حسب ما هو موضح في مواضعه من البحث.

- **وأما التوصيات:**

فأوصي نفسي والمسلمين عامة وأهل التخصص

خاصة بكثرة تدبر القرآن الكريم، لننهل من رياضه اليانعة، ونتفيأ ظلاله الوارفة، ونعيش في رحاب دقائقه وأسراره، فيرتفع اليقين، ويزداد الإيمان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر والمراجع (مرتبة هجائيا).

١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، لأحمد بن محمد الدمياطيّ، الشهير بالبناء تحقيق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.

٢) الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة، بدون تاريخ.

٣) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار. ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٦) البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٧) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من

المحققين، ط/ دار الهداية.

٨) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، المحقق : علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٩) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم، ت: د ضاحي عبد الباقي محمد، ط/ دار الغرب الإسلامي - بيروت، الأولى - ١٤٢٣هـ.

١٠) التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١١) تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي- بيروت - بدون تاريخ.

١٣) التفسير البسيط للإمام الواحدي، ط/ عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ

١٤) تفسير الراغب الأصفهاني لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي، دار النشر: دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

١٥) التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٦) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ٢٠٠١م.

١٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٨) الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٩) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد إبراهيم مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

٢٠) حجة القراءات لابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.

٢١) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت.

٢٢) الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

٢٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسيّ، ت: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٢٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، ط/ دار القلم، دمشق.

٢٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الآلوسي البغدادي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب

العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٦) زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الأولى - ١٤٢٢ هـ.

٢٧) صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٨) صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون تاريخ.

٢٩) الطراز ليحيى العلوي الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٠) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، ت: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٣١) غريب القرآن لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٣٢) غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، للسجستاني، ت: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة - سوريا، الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت، الثالثة - ١٤٠٧هـ.

٣٥) لسان العرب- للإمام محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/١، بدون تاريخ.

٣٦) لطائف الإشارات للإمام القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة.

٣٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٨) مختار الصحاح: لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط/ المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٣٩) مدارك التنزيل وحقائق التأويل تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٤٠) معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى ١٤٢٠ هـ.

٤١) معاني القراءات لأبي منصور الأزهري، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٤٢) معاني القرآن: للإمام أبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط/ الدار المصرية

للتأليف والترجمة - مصر، الأولى.

٤٣) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/ جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٤) معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م. معترك الأقران

٤٥) المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤٦) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس ت: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٧) من بلاغة القرآن للأستاذ/ أحمد البيلي البدوي الناشر: الجفان والجابي - قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧

٤٨) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، بدون تاريخ.

٤٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٥٠) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصَّاب، تحقيق: علي بن غازي التويجري، ط/ دار القيم، بيروت، ٢٠٠٣م.

تأسست عام 2011م
مجلة
العلوم الإسلامية